# المرأة والنبوة

## التوراة - الإنجيل - القرآن

علي الزيدي



# المرأة والنبوّة

## التوراة - الإنجيل - القرآن

# المرأة والنبوّة

## التوراة - الإنجيل - القرآن

علي الزيدي

المؤلف: علي الزيدي
العنوان: المرأة والنبوّة
الناشر: دار سحر القلم
الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٤٣هـ / ٢٠٢١م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
٣٠١٤ لسنة ٢٠٢١

الترقيم الدولي: ISBN 978 – 9922 – 9356 – 4 - 5




توزيع:
دار الرافدين



بسم الله الرحمن الرحيم

# المقدمة

إن مسألة نبوة النساء ومدى تحققها من عدمه طرحت في بعض نصوص التوراة والإنجيل بشكل صريح، ولكنها لم تطرح في القرآن الكريم بشكل يدعو الى الإطمئنان بوجود نبوة للنساء.

وكان هناك شبه إجماع بين علماء ومفسري المسلمين في مسألة حصر النبوة بالرجال دون النساء، إلّا بعض من توقف أو خالف هذا الإجماع كالقرطبي وإبن حزم الأندلسي، فقد ذهبا الى إثبات النبوة للنساء، وبالخصوص مريم عليها السلام، وكذلك كان موقف ابن رشد الفلسفي المنفتح على المرأة.

ولكن هنا علينا أن نلتفت الى أمر وهو هل أن النبوة التي

طرحت في التوراة والإنجيل مفهومها ودلالتها، نفس مفهوم ودلالة النبوة التي تطرح في القرآن الكريم، أم هناك إختلاف في البين؟. فهذا ما سنبينه في الأوراق القادمة.

عموماً إن الغرض من كتابة هذا البحث هو ليس من أجل إثبات أفضلية الرجال على النساء، ولا النساء على الرجال، وإنما نسعى لبيان هل هناك وجود حاجة ملحّة تفرض نبوة النساء في عالم الدنيا أم الحاجة منتفية، وهناك إكتفاء بوجود نبوة الرجال.

ومن ثم بيان أن عدم وجود امرأة نبية هل هو نتيجة نقص في القابليات والمؤهلات العقلية للمرأة، أم هو مجرد تغير وظيفي وإختلاف في الأدوار بين الرجل والمرأة، ولا دخل له بالنقص والكمال، فكما هناك أدوار يؤديها الرجل دون أن تستطيع المرأة أن تؤديها، فكذلك هناك أدوار للمرأة لا يستطيع الرجل أن يؤديها.

ولذلك سنبين في بحثنا بأن هناك مقام للمرأة تتفرد به،

وللرجل مقام أيضـاً يتفرد به، من دون أن يتسيد أحـدهما علـى الآخر وإنما كل ما يقوم به الرجل وما تقوم به المرأة فهو علـى نحو الـود والتفـاهم والإتفـاق مـن أجـل الوصـول الـى الحيـاة التي يسودها الاستقرار والسعادة.

**علي الزيدي**

# نبوة المرأة في التوراة والإنجيل

مسألة نبوة النساء لم يكن لها أثر خارجي تتحرك من خلالها أدواته نتيجة ما تتركه من آثار أو ما يتعلق بها من أبعاد لها تأثيرها المباشر أو غير المباشر على الرجل والمرأة على حدٍ سواء.

وإنّما تعتبر مثل هذه المسألة من المسائل التي لا جدوى من إثارتها والتطرق لها. لأنها تبدو في أحسن حالاتها هي من أجل دعم مسألة المساواة بين المرأة والرجل لا غير.

والحقيقة في البدء لم يكن بودي مناقشة هذا الأمر والتطرق له بإعتبار أن هذا الأمر مفروغ منه، وإن بيانه متعلق بخصوص الدين وشرائعه، وهو الذي بين مساحة النبوة والرسالة وكيفية تعلق الأمر بالرجل دون المرأة. ولكن هذا لا يمنع من عرض مسألة النبوة وتحققها عند الرجال دون النساء، على طاولة المحاورة والبحث، وبيان إمكانية إنجاز هذا الأمر بالمرأة أو عدمه. وذلك لما تمثله من بعد مهم من

الأبعاد العملية حين النظر والبحث في الفروق بين المرأة والرجل. وخصوصاً إذا ما لاحظنا أن التوراة وإنجيل لوقا وأعمال الرسل قد ذكرت بعض النساء ونعتتهن بالنبوة، ونذكر منهن:

١- مريم بنت عمران: وهي ليست أم عيسى عليه السلام، وإنّما تذكر التوراة أخت هارون؛ (وأخذت مريم النبيّة أخت هارون دفّاً في يدها، وخرجت النساء كلهن وراءها بدفوف ورقص. فغنت لهن مريم. ((أنشدوا للربّ جلّ جلاله. الخيل وفرسانها رماهم في البحر)). الخروج١٥: ٢٠-٢١.

٢-دَبورة: (وما كانت دبورة النبية، زوجة لفيدون قاضية لبني إسرائيل ذلك الزمان) القضاة٤: ٤

٣- خَلْدَة: (فذهب حلقيا الكاهن، وأخيقام وعكبور وشافان وعسايا الى خلدة النبيّة امرأة شلّوم بن تقوة بن حرحس، حافظ الثياب في الهيكل، وكانت مقيمة في الحيّ الجديد

بأورشليم وسألوها عما يفعلون) الملوك الثاني٢٢: ١٤.

(فذهب حلقيا والآخرون، كما أمرهم الملك، الى خلدة النبيّة زوجة شلّوم بن توقهة بن حسرة حافظ أردية الهيكل، وكانت مقيمة في القسم الثاني بأورشليم وكلّموها بالأمر) أخبار الأيام الثاني٣٤: ٢٢.

٤- حَنّة: ( وكانت هناك نبيّة كبيرة في السن، إسمها حنّة ابنة فنوئيل، من عشيرة آشير، تزوجت وهي بكر وعاشت مع زوجها سبع سنوات، ثم بقيت أرملة، فبلغت الرابعة والثمانين من عمرها، لا تفارق الهيكل متعبدة بالصوم والصلاة ليل نهار) لوقا٢: ٣٦- ٣٧.

٥- بنات فيلبس الأربع: (وسرنا في الغد الى قيصرية. فدخلنا بيت فيلبس المبشر وهو أحد السبعة ونزلنا عنده، وكان له أربع بنات عذارى يتنبأن) أعمال الرسل٢١: ٨- ٩.

ولكن هنا علينا أن نفهم أمر في غاية الأهمية، وعلينا الإلتفات إليه، وهو أن النبوة في الكتاب المقدس تعني معنى

يختلف عن معنى النبوة في الفكر الإسلامي، إذ المراد بها في الأول التنبؤ بالغيب والإخبار عن المستقبل من نصر أو هزيمة وغيرها من الأمور،[1] ولا يعني الدعوة برسالة سماوية وإنزال شريعة.

ويمكن أن نلاحظ هذا المعنى جلياً في الحوارية التي ذكرتها التوارة بين دبّورة النبيّة وبين القائد باراق الذي رفض أن يذهب الى الحرب إن لم تمض معه دبّورة (فدعت باراق بن أبينوعم من قادش نفتالي وقالت له: ((الربّ إله إسرائيل أمرك، فأذهب الى جبل تابور، وخذ معك عشرة آلاف رجل من بني نفتالي ومن بني زبولون، فآتي إليك بسيسرا قائد جيش يابين ومركباته وجنده الى نهر قيشون واسلمه الى يدك)). فقال لها باراق: ((إذا ذهبت معي ذهبتُ، وإلّا فلا)) فقالت له: (( اذهب معك، لكن لن يكون لك فخر في هذه المهمة،

---

(١) ينظر: المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية: محمد رضا زيبائي، ترجمة رعد الحجاج، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٣م: ص٤١.

لأن الربّ يرمي سيسرا في يد امرأة) القضاة٤: ٦- ٩.

فنلاحظ من خلال هذه الرواية بأن القائد باراق لم يكن ينظر الى دبّورة على أنها نبيّة من الله تعالى، وإنّما كان يعتبرها من الذين يتنبأون بالحوادث ويخبرون عن المستقبل، ولذلك هو أصرّ على ذهابها معه ليرى مدى صدق ما تنبأت به من النصر وقتل سيسرا، وإلّا لو كانت هي نبيّة، بالإعتبار الذي ذكرناه لذهب بمجرد أن طلبت منه الذهاب الى جبل تابور من أجل الحرب، كون أمرها رباني، وهو من المؤمنين بها، وحينئذ فما عليه إلّا الطاعة وتنفيذ الأمر بلا جدال، ولكن ما جرى يدلّ على أنّها كانت بين اليهود قاضية وتتنبأ بالحوادث والإخبار عن المستقبل.

هذا علماً أن كتاب التوراة يصور لنا المرأة وهي أكثر عرضة للإنخداع من الرجال، ولذا كانت محطاً لإهتمام الشيطان، وربما كان ذلك هو السبب وراء تكليفها بقبول تسيد الرجل عليها. وعلى مرّ التاريخ كانت رؤية أئمة اليهود

والنصارى قرينة نوعـاً ما على هذا التوجّه، فاعتبروا التفاوت بين المرأة والرجل، في الخصائص التكوينية، وفي الأوضاع والأدوار، وفي التعليم والأحكام، من المسلمات، بل قد يذهبون الى أبعد من ذلك، فينقلون التفاوت الى المكانة الإنسانية والأخلاقية بين الجنسين. فعلى سبيل المثال، تؤكد الأحكام الدينية لليهود على أن المرأة، إذا حبلت وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام، وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين.[1] (سفر اللاويين١٢: ٢- ٥).

وكذلك تذكر التوراة أن (بين ألف رجل وجدتُ واحداً صالحاً ولم أجد امرأة صالحة بين ألف) سفر الجامعة٧: ٢٨. وكيف يبعث الربّ امرأة نبيّة وصفتها في التوراة: (فوجدت المرأة أمرّ من الموت، المرأة التي هي شباك وقلبها إشراك ويداها قيود. الصالح قدّام الله ينجو منها. أمّا الخاطئ فيـؤخـذ بها) الجامعـة٧: ٢٦. وكذلك يذكر في العهد القديم:

---

(١) ينظر المصدر نفسه: ص٤١.

(وإذا حاضت المرأة فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من يلمسها يكون نجساً إلى المساء. كل ما تنام عليه في أثناء حيضها أو تجلس عليه يكون نجساً، وكل من يلمس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء. وكل من مسّ متاعاً تجلس عليه، يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجساً إلى المساء. وكل من يلمس شيئاً كان موجوداً على الفراش أو على المتاع الذي تجلس عليه يكون نجساً إلى المساء. وإن عاشرها رجل وأصابه شيء من طمثها، يكون نجساً سبعة أيام. وكل فراش ينام عليه يصبح نجساً.

إذا نزف دم امرأة فترة طويلة في غير أوان طمثها، أو استمر الحيض بعد موعده، تكون كل أيام نزفها نجسة كما في أثناء طمثها. كل ما تنام عليه في أثناء نزفها يكون نجساً كفراش طمثها، وكل ما تجلس عليه من متاع يكون نجساً كنجاسة طمثها. وأي شخص يلمسهن يكون نجساً، فيغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجساً إلى المساء. وإذا برئت من

نزفها فلتمكث سبعة أيام ثم تطهر، وفي اليوم الثامن تجيء بيمامتين أو فرخي حمام إلى كاهن إلى مدخل خيمة الاجتماع، فيقدم الكاهن أحدهما ذبيحة خطيئة، والآخر محرقة. ويكفر الكاهن عنها في حضرة الربّ من نزف نجاستها).[1]

وجاء في التلمود: (الحمد لك يا رب يا ملك الدنيا، يا من لم تخلقني أنثى)

(وا حسرتاه لمن كانت ذريته إناثًا)

(أصلح النساء المشعوذات)

(النساء أرواحهن تافهة)

(النساء لسن حكيمات ولا يعتمد عليهن)

(نزلت الى العالم عشرة أنصبة من الثرثرة أخذت النساء

---

(١) سفر اللاويين، الإصحاح١٥: ١٩-٣٣

منها تسعًا)

(لا توجد إلّا للجمال، لا توجد امرأة إلّا لإنجاب الأولاد)

(كل من يمشي وراء مشورة امرأة يسقط في جهنم)

وهنا يمكن لنا أن نذكر بعضاً من الملاحظات التي تنافي نبوة المرأة التي أشير إليها في التوراة والإنجيل ومن نفس الكتاب المقدس:

أولاً:

يقول بولس: (أيتها النساء، إخضعن لأزواجكن كما تخضعن للربّ، لأن الرجل رأس المرأة كما أن المسيح رأس الكنيسة، وهو مخلّص الكنيسة وهي جسده. وكما تخضع الكنيسة للمسيح فلتخضع النساء لأزواجهن في كل شيء) أفسس٥: ٢٢- ٢٤. وفي رسالة بولس الى أهالي كورنثوس: (لكني أريد أن تعرفوا أن المسيح رأس الرجل والرجل رأس المرأة، والله رأس المسيح) كورنثوس الأولى١١: ٣ (فما

الرجل من المرأة، بل المرأة من الرجل، وما خلق الله الرجل من أجل المـرأة، بل خلق المـرأة مـن أجل الرجل) كورنثوس الأولى١١: ٨- ٩. فإذا كان الأمر بهذه الصورة فكيف تمنح للمرأة القيادة وتكون راعية ومعلمة للرجال كونها نبيّة وقد تقلدت لباس الكهنوت، بحيث تحمل كل مهام ذلك الأمر الصعب. ثم المطلوب منها بعد ذلك أن تخضع لزوجها في كل شيء!.

ثانيـاً:

يقول بولس: (لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع، ولكن لست آذن للمرأة ان تعلّم ولا تتسلط على الرجل، بل تكون في سكوت. لأن آدم جبل أولاً ثم حواء. وآدم لم يغو لكن المرأة أغويت فحصلت في التعدي. ولكنها ستخلص بولادة الأولاد إن ثبتن في الإيمان والمحبة والقداسة مع التعقل) تيموثاوس الأولى٢: ١١- ١٤. ونلاحظ هنا أن بولس لم يثبت هذا الأمر على أساس الأثر الإجتماعي السائد

في ذلك الزمن ولا لخصوصية تحكمت بالكنيسة، التي كانت برعاية تيموثاوس، وإنّما تعرض لأمور تخص الرجل والمرأة في أصل الخلقة، فإذا كان الأمر كذلك، وعلمنا بأن المرأة لا يجب أن تتعلم في الكنيسة، فيكون من باب أولى أن لا تتسلم أو تمنح درجة من درجات الكهنوت العالية، وذلك لما هو معلوم بما يناط بتلك الدرجات من المسؤولية والتعلم.

ثالثـًا:

في بشارات الأنبياء التي ذكرت في الكتاب المقدس لم يبشروا مجتمعاتهم وأقوامهم بخروج نبيّة أو رسولة لتقودهم وتخلّصهم من نير الظلم والعبودية والضلال، وإنّما كانت البشارات كلّها منصبّة على الرسل والأنبياء الرجال، فعلى سبيل المثال جاء في الكتاب المقدس:

لأنه يولد لنا ولد ويعطى لنا ابن

وتكون الرئاسة على كتفه

يسمى بإسم عجيب،

ويكون مشيراً وإلهـاً قديراً

وأبّاً أبديـاً ورئيس السلام

سلطانه يزداد قوّة،

ومملكته في سلام دائم (إشعيا٩: ٥- ٦)

وحتى النساء كنّ إذا طلبن مولوداً ارادنه ذكراً، وينذرن نذراً بأن يكرسنّ كلّ حياته للربّ، فها هي التوراة تخبر عن امرأة اسمها حنّة وكيف أنها طلبت ولداً ذكراً من الربّ، ولم تطلب انثى، ليكون بعد ولادته نبيـاً إسمه صموئيل حيث قالت: (أيها الرب القدير، إذا نظرت الى شقاء أمتك وذكرتني وما نسيتني، بل رزقتني مولوداً ذكراً، فأنا أكرسه لك كل حياته دون أن يقص شعر رأسه) صموئيل الأول١: ١١. (واستجاب الربّ صلاتها، فحبلت في تلك السنة وولدت إبنـاً ودعته صموئيل لأنها قالت: (من الربّ طلبته)) صموئيل

الأول١: ١٩- ٢٠. (وكبر صموئيل وكان الربّ معه، ولم يهمل شيئاً من جميع ما كلّمه به وعلم بنو إسرائيل من دان الى بئر سبع، أنّ الربّ أختار صموئيل نبياً. وعاد الربّ يتراءى في شيلوه، لأنه تجلى لصموئيل هناك وكلّمه) صموئيل الأول٣: ١٩- ٢١.

وهذا الأمر كان محفوراً في هاجس كل من الرجل والمرأة، والذي ساهم في إيجاده هو البعد الحركي للنبوة الإلهية، التي أنيطت بالرجل دون المرأة، وهذا بدوره يشكل الإختيار الكوني للأكفأ في أداء هذا الدور. فمثلما تمثل المرأة الدور الأكمل في حضانة الطفل في الأشهر الأولى للولادة، فكذلك الرجل في مسألة النبوة وأصداء الرسالة ولذلك تجد الكتب السماوية توضح هذا الأمر بأجلى صوره، وبالتالي أصبح حافزاً يحرك أحاسيس الأمهات بتمني الحصول على الذكور دون الاناث لأنهن يأملن بوصول الرجل الى درجة من درجات النبوة والرسالة. ولم نجد ذكر لأي امرأة أو رجل

قد تمنى الحصول على امرأة، وهو يطلب من الله أن يرزقه الذريّة.

رابعـاً:

بالرغم من القيمة والمكانة العالية لمريم عليها السلام بإعتبارها قد كانت مصطفاة من بين النساء لحمل عيسى عليه السلام من دون أن يمسسها بشر. ولكنها لم تذكر في الأناجيل على أنها قد مارست أي دور كهنوتي أو رسالي. بالرغم من ذلك لم تتجاوز في الإنجيل دورها الطبيعي كأم، بل لم تطالب هي ذاتها بأي دور كهنوتي إطلاقـاً.

# نبوة المرأة في الإسلام

النبوة: هي الإخبار عن الله تعالى.(١)

والنبي: هو الإنسان المخبر عن الله بغير واسطة بشر، أعمّ من أن يكون له شريعة كمحمد صلى الله عليه وآله، أو ليس له شريعة كيحيى عليه السلام، قيل سمي نبياً لأنه أنبأ من الله تعالى، أي أخبر. وقيل النبوة والبناوة لما إرتفع من الأرض. والمعنى انه ارتفع وشرّف على سائر الخلق.(٢)

وقيل النبي: هو الطريق، ويقال للرسل: أنبياء الله، لكونهم طرق الهداية إليه،...والإعتقاد بالنبوة والأنبياء من أصول الدين المبين، ومما يلزم إعتقاده بالإستدلال واليقين.

---

(١) العقائد الحقة: السيد علي الحسيني الصدر، نشر دار العلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م: ص٢٠٥.

(٢) مجمع البحرين: فخر الدين الطريحي (ت١٠٨٥هـ)، تحقيق أحمد الحسيني، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م: ج١، ص٢٤٩.

والخلق بأجمعهم محتاجون الى النبيين، ومضطرون الى المرسلين، ليكونوا وسائط بينهم وبين الله ربّ العالمين، وطرقاً لمعرفة وظائفهم، ووسائل لعرفان مسائلهم، وحججاً على جميع بريّته، ومصباحاً لهداية خليقته.(١)

وإن لفظة (الرسول) بمعنى (حامل الرسالة)، ولفظة (النبي) إذا كانت مشتقة من مادة (نبأ) فالنبيُّ بمعنى (صاحب الخبر المهم)، وإذا كانت مشتقة من مادة (نبو) فهو بمعنى: (صاحب المقام الرفيع والشريف). واعتقد البعض أن مفهوم النبي أعمّ من مفهوم الرسول، وذلك لأن النبي هو الذي نزل عليه الوحي من الله، سواء كان مأموراً بالإبلاغ للآخرين أم لم يكن، بينما الرسول هو المأمور بإبلاغ الوحي أيضاً.

ولكن هذا التفسير غير صحيح، وذلك لأنه ذكرت في بعض الآيات الكريمة صفة (النبيّ) بعد صفة (الرسول)، مع انه وفق التفسير المذكور، يلزم أن تذكر الصفة التي تتضمن

---

(١) العقائد الحقة، مصدر سابق: ص٢٠٥.

المفهوم العام وهي (النبي) قبل ذكر الصفة (الرسول) اضافة الى عدم وجود دليل على إختصاص الأمر بإبلاغ الوحيّ بالرسل.

وورد في بعض الروايات، أن مقتضى مقام النبوّة أن يرى صاحبها مَلك الوحي في النوم، وأن يسمع صوته فحسب في اليقظة، بينما صاحب مقام الرسالة يشاهد ملك الوحي في اليقظة أيضاً.

ولكن هذا الفرق لا يمكن حمله على مفهوم اللفظ، وعلى كلّ حال فالذي يمكن تقبّله أنّ النبي من حيث المصداق (لا المفهوم) أعمّ من الرسول، أي أنّ الأنبياء جميعاً كانوا يملكون مقام النبوّة. وأمّا مقام الرسالة فهو مختص بجماعة منهم، وعدد الرسل وفق الرواية (ثلاثمائة وثلاثة عشر) وبطبيعة الحال يكون مقامهم أسمى من مقام سائر الأنبياء، كما أن الرسل لم يكونوا متساوين من حيث الدرجة والفضيلة، وقد نال بعضهم مقام الإمامة

أيضـاً.[١]

إذن النبوة منصب إلهي يؤتيه الله من يشاء من أفراد الإنسان بلا حيثية نيابية، يتمكن صاحبه من سماع الوحي بقذفه في القلب أو صوت الملك أو رؤيته في المنام دون معاينته في اليقظة حين التحدث معه.

فقولنا: (منصب) بمنزلة الجنس يشمل رتبة الأنبياء والرسل والأوصياء وبعض الملائكة والعلماء. وقولنا: (من أفراد الإنسان) كالفصل يخرج به منصب الملائكة، كما يخرج بقولنا: (بلا حيثية نيابية) درجة الأوصياء والخلفاء والعلماء فإنها نيابة عن النبي. وأما قولنا: (رؤيته في المنام) فهو يميز النبوّة عن الإمامة بناء على تأصلها ومغايرتها مع الخلافة كما هو الصحيح، فإن الإمام وان يسمع صوت الملك لكنّه لا يراه في منامه، وقولنا: (من دون معاينة) إشارة

(١) دروس في العقيدة الإسلامية: محمد تقي مصباح اليزدي، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١؛ ص٢٢٨و ص٢٢٩.

إلى افتراق النبوّة عن الرسالة، فإن الرسول يعاين شخص الملك في اليقظة، وقولنا: (حين التحدث معه) ناظر إلى ما في بعض الروايات من أن النبي ربما رأى الشخص ولكن لا يسمع كلامه، فيكون عدم الرؤية- إن صحت الرواية سنداً- مختصاً بحين المكالمة والوحي.

وينبثق من هدي هذا البيان: أن النبي هو الإنسان الواجد لذلك المنصب الإلهي بلا جهة نيابية في منصبه، سواء بلغ الناس من ربّه أم لا، كان له كتاب وشريعة أم لا، وأمّا الرسول فهو الإنسان الواجد للدرجة الممكنة لمعاينة الملك والمخبر من قبل الله تعالى للمكلفين.

فمدار الفرق بين النبوّة والرسالة نقطتان: معاينة الملك وعدمها، وإعتبار التبليغ وعدمه.[1]

وليس معنى العبارة أن النبي لم يوظف بإبلاغ الوحي الى

---

(١) صراط الحق: محمد آصف الحسيني، نشر دار ذوي القربى، قم، ط١، ١٤٢٨هـ: ج٣، ص١١.

الناس، فإن معظمهم أرسلوا الى الناس، كما يستفاد من القرآن المجيد كقوله تعالى: (وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ) سورة الزخرف: ٦ وقوله تعالى: (فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) سورة البقرة: ٢١٣، بل المراد عدم اعتبار الإبلاغ، لا اعتبار عدمه.

هذا وقد ذكروا فروقاً بين النبي والرسول منها:

١- إن الرسول من جمع إلى المعجزة، الكتاب المنزل عليه، والنبي غير الرسول من لم ينزّل عليه كتاب، وإنّما يدعو إلى كتاب من قبله. ويمكن أن يستدل له بقوله تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) سورة الحديد: ٢٥ لكنه مع عدم نفيه إنزال الكتاب على النبي، لا يدل على نزول الكتاب على كلّ رسول كما لا يخفى، وهذا القول لا يسانده دليل، بل الدليل على خلافه، فإنّ عدد الرسل لعلّه أكثر من عدد الكتب المنزلة. ألا ترى أن هارون عليه السلام كان

رسولاً ولم يكن له كتاب.

٢- إنّ من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب، ونسخ شرع من قبله فهو الرسول، ومن لم يكن مستجمعاً لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول. وإظهار المعجزة لابد لكل مبعوث إلى قوم لم ينصّ نبي آخر عليه، سواء كان نبيّاً أو رسولاً، ونزول الكتاب قد عرفت الحال فيه، وأمّا نسخ الشريعة فإنه غير لازم لكل رسول، ولذا كان هارون رسولاً ولم ينسخ أية شريعة، فضعف هذا القول واضح.

٣- إنّ الرسول صاحب الوحي بواسطة الملك، والنبي هو المخبر عن الله بكتاب، أو إلهام، أو تنبيه في المنام.

٤- إنّ النبي من أوحي إليه بشرع، وإن لم يؤمر بتبليغه، فإن أمر بذلك فرسول أيضاً. وهذا قول جماعة منهم الشيخ المفيد في (النكت الاعتقادية) المنسوبة إليه. والحق أن يقال: الرسول من عاين الملك حين الوحي والإخبار من

الله تعالى وكان مأموراً بالتبليغ إلى الناس، والنبي من يسمع صوت الملك ولا يرى شخصه حين التحدث والوحي، أو يرى الحكم في المنام سواء كان مأموراً بإبلاغ الناس أم لا.

أمّا كون الرسول مأموراً بالتبليغ فيدعمه قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) سورة ابراهيم: ٤، ويدل عليه أيضـاً نفس لفظة الرسول كما هو ظاهر. وأمّا معاينته الملك حين التحدث والوحي دون النبي، فهو كما في عدّة روايات منها ما جاء في صحيحة زرارة قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّوجل: (وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا) ما الرسول وما النبي؟ قال: النبي الذي يرى في منامه، ويسمع الصوت ولا يعاين الملك، والرسول الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين الملك.[1]

---

(١) المصدر نفسه: ص٤٧ وما بعدها بتصرف.

وقال صاحب مجمع البحرين: وفرّق بينه وبين الرسول، لأن الرسول هو المخبر عن الله بغير واسطة أحد من البشر، وله شريعة مبتدأة كآدم عليه السلام أو ناسخة كمحمد صلى الله عليه وآله، وبأن النبي هو الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعاين الملك، والرسول؛ هو الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين، وبأن الرسول قد يكون من الملائكة بخلاف النبي.[١]

ويقول العلّامة حسن المصطفوي: وأمّا الفرق بين الرسول والنبي من الإنسان؛ فانّ النبي من له مقام تكويني ومنزلة إلهية ومرتبة روحانية معنويّة فوق المراتب المتداولة، وهذا المقام هو المعدّ لإعطاء منصب الرسالة، فكلّ رسول لابدّ وأن يكون قبل نبيّاً، وأمّا النبي فقد لا يكون رسولاً.

وكلمة النبي مأخوذة من النبوّة واويّة، بمعنى الرفعة

(١) مجمع البحرين، مصدر سابق: ج١، ص٢٤٩.

والعلوّ، وليست من مادة النبأ بمعنى الخبر، و قد اشتبه عليهم هذا الأمر وتشابهت اللغات.[1]

وعلى هذا يكون مقام النبوّة هو إرتفاع وإعتلاء في شأن إنسان من جهة الروحانية والمعنوية، ذاتية واكتسابية، مع كونه على فطرة بشر كسائر أفراد الإنسان. ومن لوازم هذا الاعتلاء؛ الإحاطة على مراتب عالم المادة والطبيعة والإرتباط بعوالم ما وراء المحسوس والظاهر، ونزول الوحي من جانب اللّه عزّ وجلّ إليه، والإشراف على المعارف والحقائق.

(يا أَيُّهَا النَّبِيُ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً) سورة الأحزاب: ٤٥

(إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا) سورة مريم: ٣٠

---

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم: المحقق المفسر العلّامة المصطفوي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٩م/ ١٤٣٠ هـ: ج٤، ص١٣٩.

فانّ الشّهادة على القوم و تحقّق النبّوة في سنّ الصبا، ليست من آثار النبوء مهموزاً، بل هي من لوازم اعتلاء الذات وإرتفاع المقام الروحاني.... وإنّ مقام النبوّة والخلافة يحتاج الى ثلاث امتيازات، إمتياز تكويني وإرتفاع معنوي ذاتي، وإمتياز خاصّ في المجاهدة والعمل حتّى تتحقّق حقيقة العبوديّة والفناء، وإمتياز إعطاء المنصب والمأموريّة من جانب اللّه المتعال إليه، حتى يتم مقام النبوة والخلافة.[1]

(١) المصدر نفسه: ج١٢، ص١٥.

# أمهات ثلاث ودورهن في الحفاظ على النبوة

نريد أن نناقش الآن أمومة كل من هاجر أم إسماعيل عليهما السلام وأم موسى عليهما السلام وأم عيسى عليهما السلام، ونبحث عن العوامل التي أدت الى إيجاد هذا الدور الأمومي الذي ساهم بشكل مباشر بالحفاظ على أنبياء لهم الشأن العظيم الذي لا يخفى على العالمين.

ثم لماذا هذا الدور أنيط بتلك النساء، بالخصوص؟ وتركت الأسباب الأخرى التي لو حدثت لأدت نفس الدور، إن لم يكن الظاهر منها أنها الأسلم، وأفضل مما قد يثار من إشكالات وإعتراضات، كما حدث مع حمل مريم بعيسى عليهما السلام بدون أب، فلو كان قد ولد من أب وأم، لما وجدت وتشكلت تلك الإعتراضات التي تبدو للوهلة الأولى إعتراضات مقبولة، وستحاط بالتالي حولها الكثير من الشبهات والشكوك التي من المفروض أن يكون من تلقى

عليه تلك الأحداث والرسالة في غنى عنها أو بعيداً كل البعد.

والحقيقة أن هذا الدور المناط بتلك النساء العظيمات، لم يكن دور يمكن أن يؤدى بأفراد آخرين أو بأسباب غير تلك الأسباب التي أدت الى حفظ أولئك الأنبياء عليهم السلام، فأن الله تعالى لا يأتي بفعل أو يمهد لسبب ما لم يكن هو الأنسب والأتم فيما لو قورن بغيره من الأسباب المحتملة التي يطرحها العقل أو الذهن البشري. ولذلك تأتي تلك الأفعال والأسباب بالنتائج المراد تحقيقها بلا تخلف أو إختلاف، وهي على العكس من الآراء التي يطرحها العقل بإعتبار أنها لم تحط بالحقيقة وآثارها بشكل كامل، ولا تجتاز بحال ذلك المحيط الحيوي الذي عاشته ومارست فعالياتها فيه، واحتفظت بالتجارب التي أولدتها تلك الزحمة من الأحداث وتكاثر البشر وإختلاف المصالح والأهداف.

ولو إلتفتنا الى الأدوار المهمة والمفصلية التي قامت بها تلك النساء الثلاثة ونلاحظ كيفية انحصار النجاح بالمرأة

دون الرجل، فهنا نحتاج الى التوقف والتأمل في تلك القصص القرآنية التي نقلت لنا مرحلة من مراحل الإحتياج البشري للنبوّة، لم تكن لتتم لولا وجود المرأة، وربط ذلك الوجود المصيري بها.

وهذا بالتأكيد لم يكن على نحو الصدفة، وإنما لحاجة هذا البقاء الدنيوي لعنصر الأنثى، لتكون بالتالي هي شريكة في العطاء الهدايتي الذي يصدر من بعثة الأنبياء. وبذلك سيكون لها الدور الفاعل، وهي تمارس وجودها الإيجابي في هذه الدنيا. وحينئذ سنصل الى نتيجة مهمة، وهي عدم الإحتياج الى نبوّة النساء، والإكتفاء فقط بنبوّة الرجال، بإعتبار أن لكل منهما دور فيمن يكون نبيّاً، ومن له قابلية الحفاظ على النبوة، أو أن يكون مصدراً منفرداً لولادة الأنبياء.

ثم إنّ الأمهات الثلاث قد مثلن ثلاثة خطوط يتحرك الوجود من خلالها، بل هي الضابطة التي توجد العلل

والأسباب والنتائج وهي: الإختيار، والإضطرار، والتكوين- كن فيكون- .

## خط الإختيار: (أم إسماعيل عليهما السلام)

فهاجر أم إسماعيل عليهما السلام؛ قد مثلت خط الإختيار الإبراهيمي، بأن يسكنها هي وإبنها في تلك المنطقة الخالية من البشر والزرع والماء، كما قال تعالى: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) سورة إبراهيم: ٣٧، فيعتبر والحال هذه أن إبراهيم عليه السلام هو الباذر الأول وناشر النبوة في أهم بقاع الأرض في تلك الفترة من الزمن، حيث تحرك في أكثر من بقعة من بقاع الأرض ليترك في كل منها مفردة من مفردات النبوّة يستكمل من خلالها البناء الإنساني، فمن أرض بابل في العراق الى الشام وصولاً الى مصر، وهو في كلّ منها يترك أثراً من آثار الهداية والتشريع

وحسن التصرف والتدبير.

وهنا عندما نقول إنّ سكن هاجر وإبنها إسماعيل عليهما السلام في ذلك الوادي غير ذي زرع، فهو وإن تم بأمر الله تعالى، لكن كان المنفذ والقائم بالأمر عن رضا كامل هو إبراهيم عليه السلام، فمثّل هذا الإنتقال والتحرك الإختيار عن قناعة وطيب خاطر من قبل إبراهيم، مضافاً الى وجود خط الإختيار الثاني، وقلما يلتفت إليه وهو الذي تم من قبل زوجته هاجر عليها السلام، فقد كان بإمكانها رفض طلب إبراهيم عليه السلام وعدم طاعته في تنفيذ هذا الأمر، ومن ثم الإلتجاء الى وسائل أخرى تستخدمها للتخلص منه، كأن تطلب الفراق والإنفصال عن إبراهيم، أو أن تطلب السكن في مكان آخر يكون آهلاً بالسكان والحياة، أو العودة الى أهلها أو ما شابه ذلك. وخصوصاً إذا ما علمنا أنّ السكن في ذلك المكان الذي اختاره إبراهيم عليه السلام، كان يمثل الموت والإنتحار بعينه، ولعدّة اسباب منها:

١- يمثل المكان بحد ذاته، وبالمواصفات التي ذكرت على لسان إبراهيم، الخطر المتعدد العناوين، فمن خطر الجوع وخطر العطش وخطر وجود وحوش الأرض من البشر والحيوانات.

٢- إنّ المرأة برقتها ولينها، تمثل الضعف بعينه، في مثل تلك الأماكن الجرداء، فهي لا تملك القدرة على معايشة الظروف القاسية التي تطرحها صحراء شبه الجزيرة العربية، هذا مضافاً الى وجود إبنها الصغير النبي إسماعيل عليه السلام وصعوبة إتمام تربيته والحفاظ عليه.

ولكن كل هذا لم يحدث وفضلت البقاء مع إبراهيم عليه السلام وتنفيذ ما يطلب منها بدقة متناهية، وهذا إن دلّ على شيء فيدل على عدّة أمور منها:

أولاً: شعرت أنها صاحبة هدف، تساهم به متى ما أنجز بالحفاظ على النبوّة من جهة، ومن جهة أخرى إهداء تلك

المنطقة البذور الأولى لأن تثمر لهم بالنتيجة ساعة بعثة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله.

ثانياً: إن إبراهيم عليه السلام قبل أن يعيش تجربة الطاعة في ذبح إبنه إسماعيل قد عاش تلك التجربة عندما ضحى بامرأته وإبنه عندما كان رضيعاً، وهو يتركهم في تلك الأرض التي لا يوجد أي مَعْلَم ظاهري فيها للنجاة، فكما قال إسماعيل لإبيه؛ إفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، وهو بتلك الحالة كان يمثل نفسه، ولكن هنا هاجر وفي تلك اللحظة قد مثلت نفسها وقبلت التضحية بها، وكذلك قبلت التضحية بطفلها الرضيع الذي يمثل فلذة كبدها وإمتداد وجودها الممنوح لها بعد العناء الطويل، حتى حظيت به وليداً يسدّ لها ذلك الفراغ الطويل من عدم الحمل، حتى كأنها قالت لزوجها إفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين.

## خط الإضطرار: (أم موسى عليهما السلام)

وأمّا خط الإضطرار الذي مورس في إختيار المرأة للحفاظ على النبوّة، فخير مثال على ذلك هو ما حصل مع أم موسى عليهما السلام، وكيف انّ الإضطرار أوكل بالمرأة لأداء الحفاظ على نبي الله موسى عليه السلام من بطش فرعون مصر، وأمره بقتل جميع المولودين من الذكور لبني إسرائيل وبدون إستثناء، وكيف أدت تلك المرأة العظيمة، هذا الدور على أكمل وجه، وخصوصاً بأن القرائن وواقع أحداث القصة تشير بعدم وجود عمران والد موسى اثناء ولادة موسى، لأنه قد يكون توفي قبل الولادة، أو أنه كان حياً ولكنه لم يكنِ موجوداً في تلك الأحداث لسبب ما. وهذا الأمر نجده واضحاً من خلال الخطاب القرآني مع أم موسى في قوله تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) سورة القصص: ٧. فلو كان عمران عليه السلام موجوداً مع زوجته لكان الخطاب القرآني؛ (إنّا

رادّوه إليكما) وليس (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ) بصيغة المفرد، وكذلك قوله تعالى: (فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ) سورة طه: ٤٠، فقد جاء الخطاب فقط الى الأم دون الأب، ولو كان موجوداً لشمله الخطاب. ولذلك فإن الذي تكفل بقضية الحفاظ على هذا المولود المبارك هي الأم دون الأب، وكونها هي الوحيدة القادرة على تأدية هذا الدور على أكمل وجه دون غيرها، فأصبحت صورة الإضطرار لأم موسى واضحة، وفي ذلك المشهد القصصي الذي يبيّنه القرآن الكريم في أبهى صورة من صور العرض الواقعي ليظهر لنا أمراً لابد من بيانه:

إنّ من أوضح أشكال الوحي للناس من غير الأنبياء والذي ذكر في القرآن الكريم، هو الوحي الذي حصل مع أم موسى أولاً وبشكل فردي، ولا يوجد أي ذكر لأي وحي فردي آخر قد ذكره القرآن الكريم. والوحي الآخر الذي حصل لغير الأنبياء هو ذلك الوحي الجماعي لحواريّ عيسى عليه السلام وكما قال تعالى: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ

آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ) سورة المائدة: ١١١، وفي هذا إشعار وإخبار على أن أول من أوحي اليه من البشر دون الأنبياء، كانت امرأة، ولولا خطورة الموقف والإحتياج الضروري لمنع ما كان قد يحدث، لما اختيرت للقيام بهذا الدور، وفي ذلك دلالة على قدرة تلك المرأة على تحمل هذا الوحي والإتيان بما ألقاه في القلب على أكمل وجه.

علماً إنّ الوحي: هو إلقاء أمر في باطن غيره، سواء كان الإلقاء بالتكوين أو بإيراد في القلب، وسواء كان الأمر علماً أو ايماناً أو نوراً أو وسوسة أو غيرها، وسواء كان إنساناً أو ملكاً أو غيرها، وسواء كان بواسطة أو بغير واسطة ويفيد العلم واليقين.[١]

---

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مصدر سابق: ج١٣، ص٥٩.

ويذكر العلّامة المحقق المصطفوي أربعة عشر قسماً من أقسام الوحي منها:

- الوحي في التكوين(*)، والوحي للحيوان والملائكة، وهناك وحي للشياطين(**)، والوحي للأنبياء والمرسلين، وأخيراً الوحي للأفراد المختلفة غير الأولياء، كما في:

- (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا) سورة المائدة: ١١١.

- (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى*أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ) سورة طه: ٣٨ – ٣٩.

---

(*) كما في قوله تعالى: (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا) سورة فصلت: ١٢. وقوله تعالى: (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا) سورة الزلزلة: ٤ – ٥.

(**) (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ) سورة الأنعام: ١٢١.

- (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ) سورة القصص: ٧.

والوحي إن كان في مورد إبلاغ الأحكام والحقائق الإلهية، فلابد أن يتحقق بوسيلة رسول أمين طاهر، لا ينطق عن الهوى، ولا يتمايل الى جانب خلاف الحق، ليكون حجة تامة من الله تعالى.

وأمّا في موارد شخصية أو عرفية إجتماعية، فلا إشكال في تحققه بوسائط مختلفة، إذا أريد منه هدايتهم الى ما فيه صلاحهم، وهذا لطف منه تعالى في مورد عباده المتوجهين إليه المتوقعين منه.[1]

عموماً هناك شيء ملفت للنظر بخصوص عوامل وأسباب الوحي لأم موسى وعوامل وأسباب الوحي الى الحواريين، علينا التوقف عندها،لأنها تثير مسألة مهمة، تستوجب منّا البيان والتوضيح وما دمنا نتكلم عن خط الإضطرار الذي أدّى لإختيار أمّ موسى لتنفيذ تلك المهمة

---

(١) المصدر نفسه: ج٣، ص٥٩ وما بعدها.

التي يتم الحفاظ بها على نبي الله موسى عليه السلام، فنحن لا زلنا نتعامل بالإضطرار مع الوحي الآخر الذي حصل مع الحواريين، ولكن مع وجود فارق جوهري بينهما لا يمكن التغاضي عنه أو تجاهله، ألا وهو؛ انه إختيار ولو بالإضطرار لأداء مهمة كبيرة يكون الفرد مؤهلاً لأدائها دون غيره بحسب الاستحقاق، وما وصل إليه من درجات الكمال واليقين وهو معبأ بالكامل لأداء الدور بدون تردد، وقد يكون الوحي قد أتى كعامل مساعد لأمر قد بيتته أمّ موسى مسبقـًا، ألا وهو وضع موسى عليه السلام في صندوق خشبي وإلقاءه في اليم لأنه السبيل الوحيد لخلاصه من فرعون وجلاوزته، ومن ثم ليأخذه الماء الى أي مكان بعيداً عن فرعون، ولعله يعيش وينجو من القتل، فتكون قد قبلت بالبعد والفراق مقابل نجاة وليدها، وهنا جاء الوحي الإلهي بأمرين مهمين وهما:

١- تثبيت قلب أمّ موسى وأن تمضي في أمر إلقاء موسى عليه السلام في اليّم دون تردد.

٢- بشارة أم موسى بأن الله تعالى سوف يرد لها موسى عليه السلام سالماً.

أمّا مسألة الوحي مع الحواريين فالأمر مختلف، فالظاهر إنهم كانوا في البدء يشكون في مسألة نبوّة عيسى عليه السلام، فلم يؤمنوا به بالمباشر، ولولا أن الله تعالى قد أوحى اليهم بأن يؤمنوا به وبرسوله عيسى لم يكونوا ليقدموا على هذا الأمر، ويكتفوا بما تقدمه القرائن الخارجية للتصديق بنبوّة عيسى عليه السلام، وهذا واقعاً أمر يحسب عليهم لا لهم، إذ كان من المفروض بهم التصديق برسالة ونبوة عيسى، لأن مقدمات الإيمان بذلك كانت موجودة للمتدبر وللمؤمن الواعي، وللباحث عن الإعتقاد الصحيح، بإعتبار أنّ لله الحجّة البالغة في بيان كل المقدمات والأسباب التي تدعو الى الإيمان بشيء أو الكفر والإبتعاد عن ذلك الشيء، وهذا يعطي دلالة على التصور بقلة يقين الحواريين من اصحاب عيسى، وقرينة ذلك هو ما يخبرنا به القرآن الكريم عنهم، إذا بعد ن بيّن الله تعالى كيف أنّه قد أوحى لهم ليؤمنوا به

وبرسوله، طلبوا من عيسى عليه السلام أن ينزل عليهم ربهم مائدة من السماء، كما يخبرنا القرآن عن ذلك: ({إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ) سورة المائدة: ١١٢ – ١١٣، والقرينة الأخرى أن واحداً منهم- وهو يهوذا الأسخريوطي- قد وشى بعيسى وسلّمه الى الجنود الرومانيين بمساعدة الكهنة اليهود، كما يخبرنا إنجيل متي بذلك حيث جاء فيه: (عندئذ ذهب واحد من الاثني عشر، وهو المدعو يهوذا الأسخريوطي، إلى رؤساء الكهنة، وقال: «كم تعطوني لأسلّمه إليكم؟» فوزنوا ثلاثين قطعة من الفضة. ومن ذلك الوقت، أخذ يهوذا يترقب الفرصة لتسليمه).[1]

(وعند المساء إتكأ –يسوع- مع الاثني عشر. وبينما

---

(١) متي٢٦: ١٤-١٦

كانوا يأكلون، قال: «الحق أقول لكم: إنَّ واحداً منكم سيسلمني». فاستولى عليهم الحزن الشديد، وأخذ كل منهم يسأله: «هل أنا يا رب؟» فأجاب: «الذي يغمس يده معي في الصحفة هو الذي يسلمني. إن إبن الإنسان لابد أن يمضي كما قد كتب عنه، ولكن الويل لذلك الرجل الذي يسلّم ابن الإنسان. كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد!» فسأله يهوذا مُسَلِّمُه! «هل أنا هو يا معلم؟» فأجابه: «أنت قلت!».[1]

والآخرون بعضهم من أنكر معرفته بعيسى عليه السلام كبطرس، وكما يخبرنا متي في إنجيله: (في تلك الأثناء كان بطرس جالساً في الدار الخارجية، فتقدمت إليه خادمة وقالت: «وأنت كنت مع يسوع الجليلي». فأنكر بطرس أمام الجميع وقال: «لا أدري ما تقولين» ثم خرج إلى مدخل الدار، فعرفته خادمة أخرى، فقالت للحاضرين هناك: «وهذا كان مع يسوع الناصري» فأنكر بطرس مرة ثانية وأقسم: «إني

---

(١) متي٢٦: ٢٠-٢٥

لا أعرف ذلك الرجل» وبعد قليل تقدم الواقفون هناك إلى بطرس وقالوا له: «بالحق إنك واحد منهم، فإن لهجتك تدل عليك» فابتدأ بطرس يلعن ويحلف، قائلاً: «إني لا أعرف ذلك الرجل» وفي الحال صاح الديك، فتذكر بطرس كلمة يسوع إذ قال له: «قبل أن يصيح الديك تكون قد أنكرتني ثلاث مرات».[1]

ومنهم من فرّ عنه، ولم يدافع عن رسوله وقائده، كما يخبرنا متي: (ثم وجّه يسوع كلامه إلى الجموع قائلاً: «خرجتم بالسيوف والعصي لتقبضوا عليّ كما على لص. كنت كلّ يوم بينكم أعلّم في الهيكل، ولم تقبضوا عليّ! ولكن، قد حدث هذا كلّه لتتم كتابات الأنبياء!» عندئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا!)).[2]

لا بل حتى لم يواسوه ويبقوا معه في محنته، وخصوصاً

---

(١) متي٢٦: ٦٩-٧٥

(٢) متي٢٦: ٥٥-٥٦

في تلك الليلة التي ألقي القبض فيها عليه، كأولاد زبدي وبطرس: (ثم ذهب يسوع وتلاميذه إلى بستان يدعى جثسيماني، وقال لهم: «إجلسوا هنا حتى أذهب إلى هناك وأصلي». وقد أخذ معه بطرس وابني زَبَدي وبدأ يشعر بالحزن والكآبة. فقال لهم: «نفسي حزينة جداً حتى الموت! ابقوا هنا واسهروا معي!» وابتعد عنهم قليلاً وأرتمى على وجهه يصلي، قائلاً: «يا أبي، إن كان ممكناً، فلتَعبُر عنّي هذه الكأس: ولكن، لا كما أريد أنا، بل كما تريد أنت!» ورجع إلى التلاميذ فوجدهم نائمين، فقال لبطرس: «أهكذا لم تقدروا أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ اسهروا وصلّوا لكي لا تدخلوا في تجربة. إن الروح نشيط؛ أمّا الجسد فضعيف». وذهب ثانية يصلي، فقال: «يا أبي، إن كان لا يمكن أن تَعْبُرَ عني هذه الكأس إلّا بأن أشربها، فلتكن مشيئتك!» ورجع إلى التلاميذ، فوجدهم نائمين أيضاً لأن النعاس أثقل أعينهم. فتركهم، وعاد يصلي مرة ثالثة، وردّد الكلام نفسه. ثم رجع إلى تلاميذه وقال: «ناموا الآن واستريحوا! حانت الساعة،

وسوف يسلّم ابن الإنسان إلى أيدي الخاطئين. قوموا لنذهب! ها قد اقترب الذي يسلمني».[١]

وليس هذا فقط فإن الذي أخبرهم بقيامة المسيح، وكما تذكر ذلك الأناجيل هي (مريم المجدلية) وحتى عندما أخبرتهم، شكّوا في هذا الخبر، وكما جاء في إنجيل متي: (وفي اليوم الأول من الأسبوع، بعد انتهاء السبت، ذهبت مريم المجدلية ومريم الأخرى تتفقدان القبر. فإذا زلزال عنيف قد حدث، لأن ملاكًا من عند الرب نزل من السماء، وجاء فدحرج الحجر وجلس عليه. وكان منظر الملاك كالبرق، وثوبه أبيض كالثلج. ولما رآه الجنود الذين كانوا يحرسون القبر، أصابهم الذعر وصاروا كأنهم موتى. فطمأن الملاك المرأتين قائلاً: «لا تخافا. فأنا أعلم أنكما تبحثان عن يسوع الذي صلب. إنه ليس هنا، فقد قام، كما قال. تعاليا وانظرا المكان الذي كان موضوعًا فيه، واذهبا بسرعة وأخبرا

---

(١) متي٢٦:٣٦-٤٦

تلاميذه أنه قد قام من بين الأموات، وها هو يسبقكم إلى الجليل. هناك ترونه. ها أنا قد أخبرتكما!».

فأنطلقت المرأتان من القبر مسرعتين، وقد استولى عليهما خوف شديد وفرح عظيم، وركضتا إلى التلاميذ تحملان البشرى. وفيما هما منطلقتان لتبشرا التلاميذ، إذ يسوع نفسه قد التقاهما وقال: «سلام» فتقدمتا وأمسكتا بقدميه، وسجدتا له. فقال لهما يسوع: «لا تخافا! اذهبا قولا لإخوتي أنّ يذهبوا إلى الجليل، وهناك يرونني».[1]

(وأمّا التلاميذ الأحد عشر، فذهبوا إلى منطقة الجليل، إلى الجبل الذي عيّنه لهم يسوع. فلمّا رأوه، سجدوا له. ولكن بعضهم شكّوا).[2]

---

(١) متي٢٨: ١-١٠

(٢) متي٢٨: ١٦-١٧

## ثلاث نساء حافظن على موسى عليه السلام:

وأنت تطالع قصة موسى عليه السلام التي يرويها القرآن الكريم تجد هناك شيء عجيب وغريب، يوحي لك بالتناسق في إيجاد ثلاثة عناوين انثوية تتحرك لتضع للقصة منهجية جديدة في بيان سبل الحفاظ على أثمن الأشياء، وإبعادها عن عيون أشرّ الناس وأخطرهم فتكًا على الإنسانية. وبالتالي ليعطن صورة بأن للمرأة دور مهم في هذه الدنيا لا يمكن نكرانه أو تجاهله.

دور قد عجز رجال بني إسرائيل عن اداثه أو حتى الإنتفاض على فرعون وجنده، وعلى أقل التقادير ليكسروا ذلك القرار الجائر القاضي بقتل المواليد الذكور من بني إسرائيل، والإبقاء على الإناث لإستحيائهن. موقف صعب مرّ به بنو إسرائيل، ولكنهم لم يحركوا تجاهه أي ساكن، ولم ينتفضوا لهذا الموقف من الظلم الذي أحاطهم به الفرعون. وما دام لا يوجد فيهم من له قابلية الثورة والإصلاح أراد الله

تعالى أن يأتي بهذا المصلح ليشق طريقه الإصلاحي ويبدأ به من الصفر. فالقوم يبدو أنهم أضاعوا المواثيق ونسوا العهود، ولم تبق لديهم جذوة من الإيمان تمدهم بالشجاعة التي تحركهم لرفض الواقع الخارجي، فكان أمر فرعون بقتل الذكور من مواليدهم كجزء من العقوبة التي يستحقها بنو إسرائيل.

ويبدو كجزء من العقوبة أيضاً أن يبعد الله في تلك المرحلة الرجال من أن يكون لهم دور في احتضان وحماية موسى عليه السلام، وكتعبير عن عدم الرضا عنهم أوكل حماية ورعاية موسى الى النساء، من دون أن يكون للرجال أي دور في ذلك، فأختيرت النساء الثلاثة، وكانت كل واحدة منهن قد أوكلت بمهمة تختلف عن الأخرى ليتم ذلك الأمر الإلهي الذي خطط له بتلك الصورة، التي لا يمكن تصديقها، إلّا أن تكون الإرادة الإلهية هي المخططة والمنفذة لإستكمال تلك القصة الفريدة والعجيبة.

وكانت مهمتهن موزعة كالآتي:

الأولى: أوكلت المهمة الأولى لأم موسى، فهي التي أوحي إليها بأن تلقي موسى عليه السلام في اليّم، وفعلاً قامت بإلقاء وليدها بعد أن عملت له صندوقاً من الخشب ووضعته فيه وتركته في الماء يسري بعين الله. فتأخذها الحسرة وشدّة الحزن على فراق ذلك المولود المبارك، وليتخلل ذلك أملاً يعصف قلبها عصفاً، ليظهر منه هاجساً يسامر خاطرها، فيتحول يقيناً تسمع به وحي الله؛ لا تخافي ولا تحزني إنّا رادّوه إليكِ. وهكذا أدت مهمتها على أكمل وجه.

الثانية: المهمة الثانية أوكلت الى زوجة فرعون- آسيا بنت مزاحم- بعد أن جاء اليّم بموسى الى قصر فرعون، فألتقطوه وربّوه لينفعهم أو يتخذونه ولداً (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) سورة

القصص: ٨ – ٩، وهنا استمع فرعون لامرأته وأبقى الصبي بعد أن ألقى الله محبته في قلبه، والظاهر أن الذي قام بالدور الكبير في إقناع فرعون بعدم قتل الطفل وابقائه عندهم لتربيته هو لتك المرأة الجليلة المؤمنة التي شعرت بأهمية هذا الطفل، وعليها أن تتحرك وتساهم في الحفاظ والبقاء على حياته، ولم يكن حينها بيتاً آمناً له إلّا بيت الفرعون نفسه، وبالتالي قد دفعت ثمن إيمانها بموسى عليه السلام أن استشهدت على يدي فرعون نفسه.

الثالثة: المهمة الثالثة أوكلت الى أخت موسى وكان دورها أن تجد موسى عليه السلام وتعود به الى أمّه لكي تقرّ عيناً، ولكي تبدأ المرحلة الثانية في الحفاظ على موسى عليه السلام، قال تعالى: (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ*وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ*فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ

وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) سورة القصص: ١١– ١٣، فذهبت والأمر من أمّها فذهبت ورأت أخاها عند آل فرعون، فنظرته نظرة جانبية كأنها لا تريده بالذات، وآل فرعون لا يعلمون قصدها، وأنها أخت هذا الصبي الذي التقطوه من اليم.

وبعد أن بقي موسى عليه السلام في بيت فرعون، أمر بالبحث عن مرضعة تكفله وترعاه، ولكن الله تعالى قال: (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ) فسيقت إليه المراضع من هنا وهناك، وكل واحدة تود لو يقبل ثديها لتنال المنزلة عند فرعون، ولكنه ترك الجميع ونفر منهن قبل مجيء أمّه، ولما رأت أخت موسى حيرة آل فرعون في أمر الصبي عرضت عليهم أن ترشدهم الى من يقبل ثديها من دون النساء، وتهتم بشأنه، ولا تقصر في رعايته[1]، وهكذا تم أمر عودته الى حضن أمه للعناية به وإرضاعه.

---

(١) التفسير الكاشف: محمد جواد مغنية، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٧٠م: ج٦، ص٥٣.

وفي هذا الفعل من قبل ثلاث نساء دون وجود لأي رجل معهن والذي ساهم بالمباشر بالحفاظ على أحد الأنبياء من اولي العزم يشير الى دلالات منها:

١- بإمكان المرأة الوقوف بوجه الشر- بالرغم من لطافتها ورقتها- والذي كان يحركه رجل أمتلأ حقداً وطاغوتية وتكبراً، وهو فرعون مصر الذي عجز الرجال من الوقوف بوجهه وردعه عن المظالم التي كان يقوم بها على بني إسرائيل بالخصوص. بينما تمكنت نساء ثلاث من تشكيل دور بطولي، وكأن مصر قد أصبحت مسرحاً كبيراً، وكتب الله تعالى الأدوار فيه، فأسند دور البطولة فيه الى تلك النساء اللواتي امتزن بمؤهلات ومواهب افتقدها جميع من كان موجوداً في أرض مصر، فأبدعن في أداء أدوارهن دون أي تلكؤ أو خطأ، بالرغم من خطورة الموقف والظروف الصعبة التي كانت تحيط بذلك المجتمع حينها.

٢- إنّ في القرآن الكريم صوراً مشرقة بخصوص المرأة، ولم يغبن حقها في هذا الجانب، ولكن نحن المسلمون غافلون عن إظهار تلك الأدوار المهمة والمميزة للمرأة، وأي أمر أجلّ وأعظم من التعرض للمرأة وهي تؤدي دورها في حماية نبي من أنبياء الله قد عجز الرجال من تأدية هذا الدور. ولذلك كم نحتاج الى الكثير من العمل في سبيل إظهار وتركيز مثل هذه المفاهيم المتعلقة بالمرأة، من أجل الإنتقال من تلك النظرة الدونية التي يفرض الجهل التمسك بها وعدم مغادرتها، وبالتالي تقع الملامة على الدين، بالرغم من براءة الدين منها.

## خط التكوين: (كن فيكون)

وأمّا الخط الثالث فهو الخط الخاص بالبعد التكويني وإيجاد وخلق الأشياء، ففي هذا الخط قد حدث تغيير في السنن الكونية، والتي منها ولادة إنسان من امرأة فقط بلا أي إجتماع أو إقتراب من رجل، وهذه الحالة بالرغم من أنها

حالة فريدة، لم تسبق بشبيه لها من قبل، ولن تتكرر مرة أخرى، إلّا أن كثير من اليهود لم يهتدوا بها ولم يجعلوا منها نقطة مفصلية في الخط الإيماني الطويل الذي وجد وتماشى مع ما تقدمه له معاجز الأنبياء، من أجل الحفاظ على الثلّة المؤمنة بمنهج الرسل، حتى تتقوى وتنشط فيما لو مسّها الخمول أو تجافى عنها المد الرسالي لطول المدّة بين بعث الرسل والأنبياء.

ولو تساءلنا عن السبب الذي دعا لأن يُبعث رسولٌ قد أتى الى الدنيا بواسطة إمرأة من دون أن يقربها رجل قط، وما الحكمة في ذلك، وهل لو أتى من امرأة ورجل لكان يحقق نفس الهدف الذي يراد من الخلق الأول؟ والجواب الواقعي والمصلحة الواقعية تبقى في المكنون والسر الإلهي بلا شك، فهو علّام الغيوب، وهو الذي يفعل ما يريد، وهو أدرى بالمصلحة الكاملة، فيما لو حصل أحدهما دون الآخر. ولكن هذا لا يمنع من أن يتبادر الى الذهن بعض المصالح والأسباب الظاهرة، على أقل تقدير والتي من الممكن أن

توجد في حالة الولادة من دون أب والإكتفاء بالأم فقط، ويمكن أن نذكر ما يلي:

أولاً:

إن مريم عليها السلام قد مثلت الأمومة التي لابد منها لإيجاد عيسى عليه السلام، وحينئذ ستمثل المرأة الأصل الذي يتوالد منه البشر، ولو أننا لاحظنا في مسألة هاجر أم إسماعيل عليه السلام كان الإختيار الذي يتبادر الى الذهن أن من الممكن أن يكون هناك بديلاً عنها في تأدية هذا الدور وخصوصاً إذا ما لاحظنا وتوقفنا عند مسألة إختيار إبراهيم عليه السلام لهاجر حتى تؤدي هذه المهمة، وكذلك في مسألة أم موسى وإن كان الأمر قد تعلق بالإضطرار لأن تكون أم موسى هي المؤدية لهذا الدور لكن هذا لا يمنع فيما لو كان والد موسى على سبيل المثال موجوداً لكان من الممكن أن يقوم بهذا الدور. ولكن هنا في مسألة إختيار مريم عليها السلام لأن تكون هي الأم التي يأتي من خلالها عيسى من

دون أن يمسسها بشر، فهذا الدور يجب الوقوف عنده وذلك لأنه دوراً لا يمكن أن يكون له بديلاً يحمل عنوان الذكورة، إذ سيبقى الدور منوطاً ومنحصراً بالمرأة لا غير. وذلك لأنه من غير الممكن ن يوجد رجل ينفخ فيه فيكون حاملاً بمولود معين، وذلك لأن طبيعة الرجل لا تقبل أن تكون وعاءً للحمل، وتكوينه البيولوجي غير مهيأ للقيام بهذا الدور، فهو تكويناً غير قادر على ذلك، لأن طبيعته الإلقاء، وليس التلقي. وهذا خلاف المرأة، فهي مُعدّة لأن تكون وعاءً حاضناً ولها رحم مهيأة لإستقبال ما يؤدي الى الحمل وبمجرد أن استدعت الأسباب والظروف المحيطة في تلك المرحلة، أن تكون عملية النفخ فيها من روح الله هي المسببة للحمل كلازم لإيجاد المولود الرسول، تحقق الأمر وحينها لن تحتاج الى أي رجل لإتمامه. وتلك ميزة ظفرت بها المرأة دون الرجل، فلولاها لما وجد عيسى عليه السلام بتلك الصورة من الخلق، وبطرف بشري واحد قد مثلته الأنثى دون الذكر.

وبذلك نرى هنا أن الرجل قد تنحى عن مثل هذا الدور بالمطلق، وبقيت المرأة هي التي من الممكن لها القيام بهذا الدور، وهنا تسجل ميزة لها، كما أن النبوّة إنحصرت بالرجال فقط، فإن مسألة الإتيان بمولود رسالي من خلال فرد بشري واحد، منحصرة بالمرأة دون الرجل، وبذلك يظهر التوازن الكوني، وميزان الإعتدال في الأدوار، فكما توجد أمور يمكن أن تؤدى من قبل الرجل والمرأة على حدٍ سواء، أو حتى في حالة الإضطرار، فهناك أمور لا يمكن أن يؤديها الرجل بدلاً عن المرأة ولا المرأة بدلاً عن الرجل حتى في حالة الإضطرار.

وهنا يمكن لنا أن نخرج بأمر مهم، ألا وهو أهمية المرأة لان تكون لها مشاركة في عملية التكوين وكأحد الأسباب في ولادة البشر، وتبقى الأمومة لها ميزة ضرورية لتكامل البشر حتى الأنبياء، بينما قد ينحسر دور الرجل كأب عن تأدية هذا الدور، وقد يتم الاستغناء عنه في بعض الحالات، ويكون خارجاً عن المنظومة التي يتم من خلالها الولادة. بل حتى

قد لا يحتاج له كمربي. ولذلك لم نجد نبيًا، لا أقلّه ظاهراً قد حرم من الأمّ، ولكننا نجد هناك أكثر من نبي حرم من وجود الأب كموسى وعيسى عليهما السلام ولعله يقع في هذا السياق، تكنية الرسول محمد صلى الله عليه وآله لإبنته فاطمة الزهراء عليها السلام بأنها أم أبيها، بإعتبار إحتياج الرسول الى نوع معين من علاقة الأم بولدها، يوجد بسببها نوع من التكامل لا ينال إلّا بتلك العلاقة. وعلى هذا يمكن أن يضاف هذا الإستنتاج الى ما ذكرناه في كتابنا (المرأة والرجل عقل واحد أم عقلان)، حول اسباب تكنية الرسول صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام بأم أبيها فراجع.[1]

ثانيًا:

لابد أن نتذكر أن هناك خلق لآدم بلا أب ولا أم، وقد تم، دون أن يشهد أحدٌ من الخلق على هذا الإنسان الأول،

---

(١) المرأة والرجل عقل واحد أم عقلان: علي الزيدي، نشر دار سحر القلم، بيروت، ط١، ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م: ص١٩٢ وما بعدها.

ولذلك قد تثار الشكوك حول خلقه وطريقة وجوده في هذه الدنيا من دون الأسباب المتعارف عليها بتوالد الإنسان، وعلى أقل التقادير تثار الأسئلة والإستفسارات حتى وإن لم يكن شك في مسألة الخلقة، لكن الاستغراب والتعجب موجود عند كثير من البشر، لا بل حتى من ناحية الفضول ومعرفة كل شيء بالتفصيل وعدم الإكتفاء بالإجمال، لذلك كانت مسألة ولادة عيسى حاضرة ويعيشها أفراد كثيرون من قبل الناس، والذي يقوم بهذا الدور ويجسده خير تجسيد تلك المرأة التي لها مقدمات عالية تكون مؤهلة لإبعاد أية شبهة ممكن أن تثار حولها فهي:

١- من أسرة عريقة ومعروفة بالتدين والطهارة والتقوى، ولها أس في النبوات والرسالة، وكما بين القرآن الكريم هذا الأمر: (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا) سورة مريم: ٢٨.

٢- إنّ الذي كفلها زكريا عليه السلام وهو الذي أشرف على تربيتها ومراعاة ما تحتاج إليه من الأمور. هذا وقد رأى زكريا بعينه الرزق المعطى لها من قبل الله تعالى: (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) سورة آل عمران: ٣٧.

٣- إنّها كانت مصطفاة على نساء عالمها: (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) سورة آل عمران: ٤٢، ومعلوم ما لهذا الإصطفاء والتطهير من آثار في الخارج يحس بها الآخرون بشكل واضح وعلى أقل التقادير اولئك الذين من الممكن أن يرونها.

٤- والأهم من هذا هو الإتيان بالمعجز الثاني الذي يثبت المعجز الأول- وهو الولادة من غير أب- وهو تكلم

عيسى وهو في المهد صبياً، حيث قال كما يبين ذلك قوله تعالى: (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) سورة مريم: ٢٩ – ٣٣. وكذلك قوله تعالى: (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ) سورة آل عمران: ٤٦، المهم فإن ولادة مريم عليها السلام من دون رجل تحمل مقدمات صدقها معها، ولا تحتاج الى المكابرة والعناد أو سوء الظن، إلّا إذا أراد الفرد أن يتقصد في مخالفة ذلك الأمر، الذي هو أبين من الشمس ليبحث عن إثارة الشك والريبة، كما حصل عند بعض اليهود.

# ولادة مريم ومحاولة إرجاعها الى الميثولوجيا المتطورة

ولكن بالرغم من وضوح هذا الأمر وثبوت ذلك الإعجاز ترى بعض الكتّاب المحدثين والمتخصصين في علم الأديان والأساطير يحاولون إثارة الشكوك حول عذرية مريم بإثبات أساطير قد سبقت الوجود المريمي كانت تشير الى وجود حمل للمرأة إذا إقتربت من بعض الأشياء في الطبيعة، ولا حاجة لها بعد الى الرجل، محاولة منهم لكي يجعلوا مسألة مريم وما حدث لها من حمل، ما هو إلّا نتاج ذلك التأثر بالأساطير، وإن لم يذكروا ذلك بشكل واضح وعلني، ولكنهم يستبطنون ذلك المعنى.

ففي هذا الصدد يقول عالم الأديان مرسيا إلياد: ثمة معتقدات يتعذر حصرها تعلمنا أنّ المرأة في قديم الزمان، تصير حُبلى عندما تدنو من بعض الأشياء أو الأماكن، كالصخور، والمغاور، والأشجار، والأنهار. عندها تدخل

روح الطفل أحشاء المرأة فتغدو حاملاً. وأيّاً كان هذا الشرط الذي يحكم أرواح الأطفال، وسواء كانت أرواح أجداد أو لم تكن، فإن أمراً واحداً يبقى مؤكداً نعبّر عنه بالقول: حتى تدخل الأرواح أجساد النساء يكون عليها أن تتريث وأن تنتظر متوارية في مكان ما؛ في أقلام الفلاحة، في المستنقعات، في الأخاديد والشقوق، في الغابات، وكأنها بذلك الفعل تحيا نوعاً من الوجود الجنيني في أحشاء الأرض، أمّها الحقيقية. ومن هناك يأتي الأطفال. من هناك، بحسب معتقدات سادت في أوروبا حتى القرن التاسع عشر، تأتي بتلك الأرواح بعض الأحياء المائية من مثل الأسماك والضفادع، وخصوصاً الإوز.

ومما لا شك فيه أن هذه الذكرى الغامضة لما قبل الوجود الراهن الذي عاشه المرء في أحضان الأرض، كان لها نتائج هامة للغاية. لقد أوجدت عند الإنسان شعوراً بالقرابة الكونية مع الوسط المحيط. بل بوسعنا القول: كان شعور الإنسان في تلك الحقبة، بانتمائه إلى النوع البشري أقلّ من

شعوره بمشاركته الكونية البيولوجية في الوسط الطبيعي والحيوي الذي فيه يحيا.[1]

ثم يقول في مكان آخر: هنالك ملامح كحالة الحبل من دون زواج ولقاح، عند الأرض الأم تستمر في الميثولوجيا المتطورة، بوجه خاص كما في الميثولوجيا اليونانية، يشار على سبيل المثال، إلى الآلهة هيرا[*]، التي تحبل من تلقاء نفسها، وبدون صلة بالذكر، وتلد الآلهة

---

(١) الأساطير والأحلام والأسرار: ميرسيا إلياد، ترجمة حسيب كاسوحة، نشر وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ط١، ٢٠٠٤م: ص٢٥٤

(*) هيرا: بحسب الميثولوجيا اليونانية تزوجت أخاها زوس كبير الآلهة. اعتبرها الإغريق حامية الزواج والخصوبة والأمومة. يماثلها عند الرومان جونون Junon، يخصص لها من الحيوانات: الطاووس، والغراب، و النبات، الرمان كرمز للخصوبة.

(تيفاون Typhaon) و (هيفايستوس[*] Hephaistos) و(آريس[**] Ares). إن الأرض الأم تجسد نموذج الزواج المقدس، المانح للخصوبة والعامل على الخلق غير المحدود. ولهذا نلمح عندها ميل إلى تمثل خصائص وأساطير آلهة أخرى للخصوبة، سواء كانت من مجال القمر، أو المياه أو الزراعة.[1]

ثم يعطينا في كتاب (المقدس والعادي) تبريراً في كيفية فهم اللغز الديني، وذلك بالإعتماد على الأساطير، لأن من شأنها مساعدة الإنسان على حل تلك الألغاز، وهو يريد أن يحيلنا بالواقع الى مراجعة النص الإسطوري والإعتماد عليه في التعامل مع النص الديني، بعد أن يخضع للإسطورة، فهو

(*) هيفايستوس: هو عند اليونان، إله النار، ويعنى بصهر المعادن.

(**) آريس: هو إله الحرب عند اليونان. وابن زوس وهيرا، إنه إله يعتد بنفسه ويتطاول على سائر الآلهة. لم يخضع إلّا لسحر أفروديت، التي أحبها وأحبته. يماثله عند الرومان الإله مارس.

(١) الأساطير والأحلام والأسرار، مصدر سابق: ص٢٨١.

يقول: ولكن ثمة جانباً آخر مهماً يجدر بنا أن نشير إليه: إنه البنية الكونية لطقس الزواج ولسلوك البشر الجنسي، ومن العسير على الإنسان اللامتدين في المجتمعات الحديثة أن يفهم هذا البعد الكوني والمقدس معاً للزواج الإنساني. بيد أن من الواجب ألّا ننسى أن العالم في نظر المجتمعات الغابرة الديني، يبدو مثقلاً بالرسالات. وهذه الرسالات ألغاز في بعض الأحيان، ولذا فإن من شأن الأساطير أن تساعد الإنسان على حلّ ألغازها.[1]

ولفراس السواح رأي في نفس هذا السياق حيث يقول: وهنا لابد من الإشارة الى أن قصة البشارة والميلاد قد وردت عند متي ولوقا، وغابت تماماً عند مرقس ويوحنا. فهذان الإنجيلان يبدآن روايتهما باللقاء الذي تم بين يسوع ويوحنا المعمدان عند نهر الأردن عندما كان يسوع في نحو الثلاثين من عمره. وهما لا يشيران ولو من بعيد بعد ذلك الى قصة

---

(١) المقدس والعادي: مرسيا إلياد، ترجمة عادل العوا، نشر دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م: ص١٧٥.

الميلاد العذري، حتى يبدو أنهما لم يسمعا بها، ولم يكن لديهما أي معلومات عن السيدة مريم وعن أسرتها وحياتها السابقة قبل الميلاد. وفي الواقع، فإن غياب قصة الميلاد عن إنجيلي مرقس ويوحنا، وورودها بشكل مختلف تماماً في إنجيلي متي ولوقا، قد دعا بعض الباحثين في العهد الجديد الى اعتبارها قصة مقحمة على هذين النصين، جرت إضافتهما لاحقاً لأسباب تتعلق بنشوء وتطور فكرة الميلاد العذري التي كانت غائبة في مرحلة تدوين الأناجيل.[1]

والحقيقة انّ الباحث هنا هو الذي أقحم نفسه في موضوع أراد أن ينفي فيه عذرية مريم، وتلك الولادة المباركة، ولذلك فهو قد ألقى بنفسه فيما وراء المحيط- دائرة الحدث ودراسته- ليحاول أن يزيح ذلك الأثر الفريد في الواقع، ومن ثم يأتي بما يبينه الدين من حقائق تعين التاريخ بأن يبدو ناصعاً بيّناً للباحثين، ليساويه بالإسطورة والخرافة، ولتتم

(١) الإنجيل برواية القرآن: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط٣، ٢٠١٧م: ص٩١.

المقارنة بينهما، بعد أن يضعهما على طاولة واحدة من الرؤية، وهذا هو الجانب غير الموضوعي في رؤية الأشياء والمقارنة بينها. دون أن يلتفت الى أن ما يطرحه الإنسان وما يصل إليه من رؤية، تختلف عن الأعمال والأحداث التي يصنعها ويأتي بها الله. هذا وخصوصاً عندما بدا له بأن مرقس ويوحنا لم يسمعا بقصة الولادة العذرية، ثم قفز ليبحث عن مخرج يتكئ عليه في دعم ما بدا له، عندما استدل بأن بعض الباحثين في العهد الجديد، اعتبروا قصة مريم وولادتها العذرية، هي قصة مقحمة على النصين اللذين وردا في متي ولوقا، وقد تم إضافتهما لاحقاً بعد أن كانت غائبة في مرحلة تدوين الأناجيل. وهنا قد غفل عن أن البؤرة الأساسية في الديانة المسيحية، والتي أوجدت بعداً قدسياً للسيد المسيح هي مسألة الميلاد العذري للسيدة مريم عليها السلام، والذي افتتحت به رسالة عيسى عليه السلام، ولم يكن أي شيء آخر يمكن وضعه في موازاتها، ولولا ذلك لما سنح لعيسى عليه السلام من أن ينطلق بالرسالة الإلهية الى الناس، أي يمكن لنا

أن نقول: كانت تلك الولادة بمثابة الدرع الحامي للرسالة العيسوية، ولو طرح عيسى عليه السلام بغير هذه الطريقة التي أتى بها الى الدنيا، لتم تكذيبه وقتله بالمباشر من قبل اليهود أنفسهم، ولم يضطروا الى الوشاية به بعد حين عند الحاكم الروماني (بيلاطس). وهذا يدل على أنهم بقوا لفترة طويلة يعانون الأمرين من مسألة ولادة عيسى دون أب، فهو بهذه الميزة يصبح مُصَدّقاً في القول والفعل، ولن يرضى بكل تأكيد عن أعمالهم الإنحرافية والتي تحدث بموافقة ومباركة الأحبار والكهنة.

وأمر الله تعالى لمريم عليها السلام بتحمل مسؤولية الإنجاب، بطريقة المعجزة من دون زوج، إحدى مقتضيات نبوّة عيسى وشريعته المباركة. فحجيتها عليها السلام كونها المبلغ الأول لبعثة النبي عيسى وشريعته المسيحية، حيث أنها أمرت من قبل الله تعالى بتحمل مسؤولية الإنجاب بطريقة المعجزة من دون بعل، ليمهد الطريق لبيان المعجزة لنبوة عيسى وشريعته، ثم أمرت من قبله تعالى بحمله والمجيء به

إلى بني اسرائيل، وأن لا تكلمهم وأن تشير إليه ليستنطقوه فيتكلم في المهد. فهي قد قامت بكل هذه المسؤوليات الموظفة من قبله تعالى لها لتبليغ واظهار المعجزة الأولى على نبوة عيسى عليه السلام وكان ذلك عن اعتقاد منها بنبوّة عيسى بتوسط ما أوحي لها من دون وساطة النبي زكريا أو غيره من الأنبياء في زمانه، فهي ابتدأت بإبلاغ شريعة جديدة من دون أخذ هذا الأمر الإلهي ذي الشأن العظيم الخطير من نبي ولا رسول ولا بوساطة النبي عيسى أيضاً، وهذا ما تعنيه الآية الكريمة (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً) فلولا حجية مريم وحجية ما يوحى إليها، لكان بإمكانها إبطال المعجزة الإلهية وهي ولادة عيسى من دون أب، بأن تدّعي- والعياذ بالله- أنه لقيط وجدته في الطريق، أو أنها ولدته عن زوج غائب أو ما شابه ذلك، فانظر إلى مقام كمال حجيتها ودورها في إبلاغ الرسالة في قوله تعالى: (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) فهذا النمط من المجاهدة والمخاطرة بالعِرض بأمر من الله تعالى وتعيين منه، فهو حكمة بالغة من

الله تعالى في إختيار هذا النمط من الجهاد، بحيث لا يتأدى إقامة الدين إلّا بذلك، من دون تدنس وابتذال في العرض ولا زوال لطهارته وعصمة مناعته.[1]

ولشدّة وضوح هذا الأمر بين العامة والخاصة، لا يمكن إخفاء مثل هذا الحدث أو تناسيه أو التنكر له، وخصوصاً إن الإنجيلين اللذين لم يذكرا حادثة الولادة العذرية، أن صاحبيها مرقس ويوحنا، أحدهما قد رافق بولس في رحلته التبشيرية الأولى، وهو صاحب إنجيل مرقس الذي سجل في إنجيله من المعجزات أكثر مما سجل أي إنجيل آخر. ولكنه لم يسجل ولادة مريم من غير أب، بالرغم من أنها أهم وأدق في المعنى من جميع المعجزات التي ذكرهن. فكأن قصد الإخفاء والتجاهل يبدو واضحاً للمتتبع والمدقق في هذا

---

(١) ينظر: مقامات فاطمة الزهراء في الكتاب والسنّة: محاضرات الشيخ محمد السند، بقلم السيد محمد علي الحلو، نشر دار الهادي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م: ص٥٣ وما بعدها بتصرف.

الأمر. وقد يكون لبولس تأثيراً عليه، بإعتبار أنه لم يكن أصلاً تلميذاً من التلاميذ الإثنى عشر الذين رافقوا عيسى عليه السلام وأصبحوا من حواريه.

بل على العكس من ذلك فإن بولس قد قضى عمره الى الفترة التي رفع فيها عيسى عليه السلام هو يهودي راديكالي متطرف الى درجة أنه كان يتلذذ بتعذيب وقتل المؤمنين من النصارى، حتى أنه تكلم عن نفسه وقال:

(فإنكم سمعتم بسيرتي قبلاً في الديانة اليهودية أني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها).[1]

ويقول في مكان آخر: (فأنا أرتأيت في نفسي أنه ينبغي أن أصنع أموراً كثيرة مضادة لإسم يسوع الناصري، وفعلت ذلك أيضاً في أورشليم، فحبستُ في سجون كثيرين من القديسين، آخذاً السلطات من قبل رؤساء الكهنة. ولما كانوا يُقتلون،

---

(١) القديس بولس الرسول: الاب متي المسكين، نشر مطبعة دير القديس أنبا مقار، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م: ص٤٩.

ألقيت قرعة بذلك (( ليعيِّن من الذي يبدأ بالرجم)). وفي كل المجامع كنت أعاقبهم مراراً كثيرة وأضطرهم الى التجديف، وإذ أفرط حنقي عليهم، كنت أطردهم الى المدن التي في الخارج).[١]

ولمّا قتل إستفانوس الذي يعتبر أول شهيد في المسيحية بعد رفع المسيح عليه السلام، وعندما كانوا يرجمون هذا الشهيد، كان بولس هذا يحرس ثياب القاتلين، وهو يفتخر بهذا العمل، كونه ذلك الفريسي الذي يتحرك على أساس سياسي وحقد ذاتي.[٢]

وإليك تعبيرات بولس (شاول) التي عبّر بها عن مساحة وعمق وطبيعة اضطهاده:

(يا رب هم يعلمون أني كنت أحبس، وأضرب في كل مجمع الذين يؤمنون بك. وحين سفك دم إستفانوس شهيدك

---

(١) المصدر نفسه: ص٥٠

(٢) ينظر: القديس بولس الرسول، ص٦٦

كنت أنا واقفاً راضياً بقتله وحافظاً ثياب الذين قتلوه).[1]

(اضطهدت هذه الطريق حتى الموت، مقيداً ومسلماً الى السجون رجالاً ونساء).[2]

(فأنا أرتأيت في نفسي أنه ينبغي أن أصنع أموراً كثيرة مضادة لإسم يسوع الناصري، وفعلت ذلك أيضاً في أورشليم فحبست في سجون كثيرين من القديسين، آخذاً السلطات من قبل رؤساء الكهنة. ولما كانوا يُقتلون، ألقيت قرعة بذلك).[3]

(كنت اضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها).[4]

ليس هذا فقط، بل أخذ في مطاردة النصارى الذين فرّوا شطر دمشق، وقد حصل على خطابات توصية من رئيس الكهنة لمزيد من الإضطهاد وخارج أورشليم. ولم يك في

---

(١) أعمال الرسل٢٢: ١٩-٢٠

(٢) أعمال الرسل٢٢: ٤

(٣) أعمال الرسل٢٦: ٩-١٠

(٤) رسائل غلاطية ١: ١٣

تاريخ الكنيسة ما يضارع هذه الرحلة في أثرها الممتد عبر الدهور كلها، فقد خرج ميمِّماً شطر دمشق، محمّلاً بخطابات توصية لذوي الحيثية، إن في مجامع دمشق الكثيرة أو لدى أصحاب النفوذ في إدارة شؤون الدولة على قدر ما ملكت أيدي حنّان وقيافا وزمرتهم من نفوذ، لكي يمنح شاول سلطات فائقة يستطيع بها أن يصنع بالمسيحيين كل ما اشتهت نفسه). [١]

ثم أن بولس (شاول) حتى لو أدّعى بأن المسيح عليه السلام قد ظهر له في مرتفعات الجليل الأعلى (الجولان) للخدمة، وحتى وإن جاءت هذه الرواية في سفر الأعمال ثلاث مرات، مرة من قلم القديس لوقا ومرتين على فم بولس الرسول نفسه. بحيث أن المساحة التي أحتلتها هذه الرواية لا يفوق إتساعها بين صفحات الإنجيل، إلّا رواية صلب المسيح.

---

(١) ينظر: القديس بولس الرسول، ص٦٩.

حيث يقول بولس: (رأيت نصف النهار في الطريق، أيها الملك، نوراً من السماء أفضل من لمعان الشمس، قد أبرق حولي وحول الذاهبين معي. فلما سقطنا جميعاً على الأرض سمعت صوتاً يكلمني ويقول باللغة العبرانية! شاول شاول لماذا تضطهدني، صعب عليك أن ترفس مناخس. فقلت أنا: من أنت يا سيد، فقال: أنا يسوع الذي أنت تضطهده. ولكن قم وقف على رجليك. لأني لهذا ظهرت لك لأنتخبك خادماً وشاهداً بما رأيت وبما سأظهر لك به، منقذاً إياك من الشعب ومن الأمم الذين أنا الآن أرسلك إليهم، لتفتح عيونهم، كي يرجعوا من الظلمات إلى النور، ومن سلطات الشيطان إلى الله، حتى ينالوا بالإيمان بي غفران الخطايا ونصيباً مع المقدسين).[1]

عموماً، فإن من يملك مثل هذا التاريخ الأسود، وذلك التشبع بالروح الفريسية الحاقدة، لا يمكن له أن يضيف الى

---

(١) أعمال الرسل٢٦: ١٣-١٨

عيسى عنصر الولادة من غير أب، وذلك بإعتبار أن الإقرار بهذا الأمر يحتم عليه الإيمان بالسيد المسيح عليه السلام في حياته ومباشرة بعد دعوته، لا بعد مماته، ولذلك على ما يبدو، أنه قد تقصد إخفاء أمر ولادة السيدة مريم العذرية، لأنه بالتالي لا يصب في مصلحته وإستمرار دعوته.

وأمّا الآخر يوحنا فهو أخو يعقوب أولاد زبدي، فهو بالرغم من أنّه قد قدّم كرستولوجيا- دراسة عن يسوع المسيح- تشدد على لاهوت المسيح لكنه ابتعد عن ذكر حدث الولادة العذرية، مع العلم أنه تميز عن سائر الأناجيل الأخرى بأنه قد ذكر معجزتين لا تذكرهما الأناجيل الباقية، وهما ما حصل في عرس قانا الجليل، وإقامة لَعازر من بين الأموات. وهذا في الواقع شيء غريب، على أقل التقادير، إنه كتب إنجيله بعد رفع عيسى عليه السلام بما يقارب المئة سنة، فيكون من المفروض قد قرأ الأناجيل الأخرى أو سمع بها، وهي تذكر الولادة العذرية لمريم عليها السلام، فكيف تجاهلها أو أنه لم يسمع بها، كما ذكر الباحث عندما أبدى

رأيه.

هذا مضافاً الى تناسي الباحث مكر اليهود وغدرهم، بحيث كان قتل الأنبياء قد أصبح عندهم من الأمور الروتينية في حياتهم اليومية كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم: (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا) سورة النساء: ١٥٥، يعملون ذلك ولا يجدون فيه بأساً، مما أستدعى بأن يكون ذلك أحد الأسباب لأن يبعث لهم نبيٌ بهذه الصورة والهيئة، عسى أن يؤثر فيهم ويصعقهم ليتم التصديق به والتوجه إليه، ولو لم تكن تلك الولادة قد تمت بهذا الشكل الذي أراده الله، لما آمن به من أمن، فهو بالرغم من تلك الولادة الفريدة وتكلمه في المهد صبياً، ولكن تجد كما بيّنا سابقاً حتى الحواريين لم يؤمنوا به إلّا بعد أن أوحى الله إليهم: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي) سورة المائدة : ١١١

ولم تكن حتى هذه القرينة دافعاً مباشراً وذاتياً للتصديق بنبوّة عيسى عليه السلام.

مضافاً الى أنه قد غفل أنّ الأناجيل لم تكتب زمن عيسى عليه السلام، وإنّما كتبت بعده بعشرات السنين، وكانت تقريباً على هذا الترتيب الزمني:

١- إنجيل (متي) كتب حوالي: ٦٠- ٦٥م.

٢- إنجيل (مرقس) كتب حوالي: ٥٥- ٦٥م.

٣- إنجيل (لوقا) كتب نحو: ٦٠م.

٤- إنجيل (يوحنا) حوالي: ٨٥- ٩٠م.

وهذا الأمر سيوفر مجالاً لإدخال أمور مقصودة، لم تكن قد أنزلت على عيسى عليه السلام، وكذلك الى حذف أخرى، سواء كان عن عمد وقصد، حسب مقتضيات المصلحة الدافعة للكاتب، أو سواء كان الكاتب قد أغفل أو نسي أو نقل بحسب فهمه غير متعمد، وهنا سوف تضيع

الحقيقة أو جزء مهم منها في أقل التقادير، فإذا كان الحال كذلك، فلا يمكن الإعتماد على إنجيلين قد كتبا بعد عيسى عليه السلام لتكون دليلاً على عدم الولادة العذرية لمريم عليها السلام، لأنهما لم يذكراها، بالرغم من أن الكاتبين الآخرين قد ذكرا هذه الولادة.

وهناك أمر مهم بهذا الخصوص وهو: لا يمكن لنا عندما نجد ذكر معين في اسطورة أو حكاية خرافية أو في أي معتقد من معتقدات البشرية الكثيرة أن نتهم الدين بأنه قد تأثر بتلك الأساطير والحكايات، فأدرجها في صحائفه، فهذا الأمر لا يمكن قبوله أو غض الطرف عنه، لأنه إتهام يفتقد الى الدليل الموضوعي. بل ربما ما نقرأه ويأتينا عن طريق الأساطير والحكايات الخرافية، هناك قسم كبير منها قد تأثر بالدين وما تطرحه المنظومة العقائدية له، وليس العكس. ولكون بعض الحوادث التي تحدث خلاف ما تألفه الطبيعة والتي تَعَود عليها الإنسان، وعندما يتم ذكرها وتدوينها في الأديان على أنها أحداث قد جرت كعقوبات للبشرية المتمردة على

خالقها. أو كأحداث داعمة وساندة لمن يمثلون برسل الله، فعندما يتحرك الماديون والإلحاديون والزنادقة ومنذ قديم الزمان وينسبوها الى الأساطير والحكايات الخرافية. كل ذلك لأنهم يؤمنون بالحس والعالم المشهود لا غير. وكلّ ما وجد خلاف تلك الطبائع فإنه ينسب الى الاسطورة والخيال والأحلام. وكمثال على ذلك، نرى كيف أن الأساطير في تصوراتها تعتمد على ما تأتي به الأديان، هو ما يذكره العالم (يونج) الذي اشتغل زمناً طويلاً بالأساطير والحكايات الخرافية، عندما يتكلم عن (الطفل الإله) فيقول: نحن نعرف عن كثير من الآلهة امثال (زيوس، وهرمس، وديونيسوس) تصورات لأفعال خاصة من سن الطفولة، وهذا النموذج للطفل الإلهي، الذي قد يبدو كذلك في صورة المسيح للطفل الذي يحمله (كريستوفورس)[1]، وفي صورة الأقزام وأنصاف الآلهة، له ما يشبهه من اشكال في علم الأمراض النفسية،

---

(١) لفظ اغريقي معناه حامل المسيح، وهو طبقاً للأسطورة مارد حمل المسيح الطفل عبر بحر واسع، ثم عمّد المسيح الطفل.

وربما كان من المألوف لدى النسوة المريضات بعقولهن أن ينظرن الى الطفل المنتظر على أنه المسيح. وربما ظهر هذا بخاصة عند معالجة الأمراض العصبية في عملية نضوج الشخصية التي تستثار عن طريق تحليل اللاشعور، أي عن طريق عملية التفرد.[1]

ففي الواقع لم تكن الميثولوجيا يوماً ما قد سبقت الدين في وجودها، حتى تتعامل معها البشرية بذلك البعد التخيلي، الذي يحاول أن يسد حاجة من حاجات الإنسان كالخوف من الموت، أو كيفية الخلاص من الخطر، أو تعويض آلام ومخاوف الحياة بأحلام يحاولون أن يجدوا فيها ما افتقدوه في وجودهم، فكل هذه الأشياء ما كان ليعرف لها وجود، لولا

---

وتحتفل الكنيسة الكاثوليكية بذكرى هذا في الخامس والعشرين من شهر يونيو. هذا وقد تركت هذه الأسطورة أثرها في أعمال النحت والتصوير.

(١) ينظر: الحكاية الخرافية: فردريش فون ديرلاين، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، نشر دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٧٣م: ص٦٠.

أن هناك جانب معرفي قبلي أثريت بسببه الأسطورة، وهي تتلقف منه الكلمات والمفاهيم المجردة التي تداولت وأثرت في الإنسان.

هذا الجانب هو الدين الذي جاء بمفاهيم جديدة، لم تكن حاضرة في المتعارف اليومي، فهو الذي أخبر عن وجود الإله، وهو الذي أخبر عن قدرته وتصرفه في هذا الكون، وهو الذي أخبرهم عن العالم الآخر، وعن الجنان التي سوف يحيى بها الإنسان بعد موته ورحيله عن هذه الدنيا، وسوف يهنأ هناك حيث المقر والمستقر. فمثل هذه الأشياء كانت حاضرة لوجود الدين والرسول المبعوث من قبل الله تعالى. ولذلك كان الدين أسبق، إذا ما قيس بالترتيب الكرونولوجي للزمن.

ولكي يستمر خط الشيطان مع خط الرحمن في وجوده، اضطر الى إيجاد الأسطورة لتشكل بعداً متوازياً مع خط الدين، فيتحرك بحراك دقيق مع أي ثابت من ثوابت الدين،

لينتقل به من الواقعية التي تخدم به البشرية، متى ما تعاملت معه التعامل الذي يدلي به الرسول المبعوث، وهو يمس مفردات الرسالة السماوية ليقدمها كمنهج عملي في حياة البشرية، ليأخذ بذلك الثابت، ويؤطره بإطار الخيال والإنفتاح بعد أن يضيف إليه عناصر غريبة عن تركيبته الأصلية، ليجعل بالتالي حيرة البشر معه أمر لا مفر منه، وهو يسير مع الميثولوجيا التي تشاكس الدين دائماً، بحيث أخذ كثير من الناس يأنسون بها وهم على قناعة تامة بأنه لن يأتي اليوم الذي تتحقق فيه مفردة من مفرداتها على أرض الواقع.

ولأنها تتناغم مع قوّة المخيلة لدى الإنسان في بعدها المفتوح، فسوف تميل النفس إليها لتتخذها مغنماً للترفيه عمّا يجول في ذاتها من هموم وضغوط، يفرضه الروتين اليومي للحياة. ومن ثم جعلت كمقابل ضد الدين، بحيث يتم الحكم عليه بنفس حكم العقل على الأسطورة، بعد تغيير الواقع والإصرار على تثبيت الأسطورة كسابقة على الدين، أو حتى اعتبارها هي الأصل الذي حاكته وعاشته حضارات

العالم القديمة. ولعل هذا الأمر قد ساعد على التركيز عليه، وجعله بؤرة معرفية تتعامل معها الشعوب، هم قادة تلك الحضارات وطواغيت البلاد، الذين طالما كانوا أعداءً للمصلحين من الأنبياء والرسل. فوجدوا خير ما يضربون به الدين هو سلاح الأسطورة، ولذلك مُلأت أحفورياتهم بتلك التّرهات والأساطير، حتى جعلوا منها ثقافة شعبية يتعامل معها يومياً. وبالطرف الآخر يحاولون قهر المصلحين ودثر مفردات الدين وإصلاحاته.

وهذا الأمر قد تأثر به كثير من العلماء والباحثين، حتى حكموا على النص الديني بالتبعية، وأنّه نصّاً مقدساً مغلقاً، بينما الميثولوجيا تتمتع بالإنفتاح الدائم وحرية التعامل مع المفردة ومتخيلها. حتى أنهم نعتوا الأيديولوجيا وخصوصاً الماركسية، ليوسعوا من دائرة النقد، بإشراك أكبر عناوين فيها، وجعلها تقف على مسار واحد من التاريخ ومعطياته، فقالوا عنها بأنها حاولت أن تكون منفتحة- الآيديولوجية الماركسية- على التطورات والحاجات الجديدة فما أفلحت

فهي والحال هذه أقرب الى النصوص المقدسة المغلقة.

بينما الميثولوجيا بعيدة كلّ البعد عن الإنغلاق، وهم بذلك يضعون كل من الدين والأيديولوجيا البشرية والميثولوجيا على عتبة واحدة من الميقاتية والتراتبية وجعلها من نتاج بشري خالص، وهي تتفاوت فيما بينها بحسب معطيات السبق والضرورة والإحتياج، تلك المعطيات الثلاث التي تتحكم بمصير الشعوب. ولذلك فهم حكموا على النص الديني بأنه مغلق، وعلى الأسطورة بالإنفتاح، ليعطوا بعداً عقلياً بأن معرفة التاريخ وحوادثه، وفكر البشرية منذ البدايات ، لابد أن يرتكز على الدراسات الميثولوجية، لأنها غير منغلقة، وما دامت هي مفتوحة، فلها قدرة الشمولية والإبداع، وبالتالي ليتحرروا من النص وإنغلاقاته المقصودة، والخلاص من الضوابط المركزية فيه.

# اللاهوت المسيحي والنظرة الكريستولوجية حول مريم العذراء

وعلى النقيض من هذه الرؤية التي تبعد الحمل العذري عن مريم عليها السلام، نجد هناك في الطرف الآخر نوعاً من التطرف والمغالاة حول مريم. فبالرغم من أن معظم آباء الكنيسة يتحدثون بإجلال عن السيدة مريم العذراء، فمنذ بداية عصر الآباء والجميع ينظرون إلى مريم على أنّها حوّاء جديدة. واول ما ظهر هذا المفهوم بإنجيل (جيمس الأصلي Proto - Gospel of James) والذي يرجع إلى القرن الثاني الميلادي، فكما أطاعت حواء الشيطان، فقد أطاعت مريم العذراء أمر ربّها بخشوع كامل وتركت نفسها لتصبح الوسيلة التي بها حفظ الربّ البشر جميعاً. وكثيراً ما يتم الربط بين ظهور هذه النظرة وبين نشأة علم اللاهوت المسيحي وخاصة ما يعرف (بالكريستولوجيا Christology) وكانت بؤرة التركيز في هذا اللاهوت على اللوغوس- الابن- وبشكل أكثر على مريم أم المسيح. فقد ثارت المناقشات بين

الآباء، خاصة آباء القرن الرابع الميلادي حول وضع السيدة العذراء في خطة الرب لفداء الجنس البشري حتى انتهى النقاش إلى مجمع أفسوس عام ٤٣٠م فأقر هذا المجمع بان مريم هي (أمّ الربّ) أو (حاملة للإله) لذا وجب أن تكون مريم طاهرة بلا إثم إلى الأبد.

وأثنى كل آباء الكنيسة على طاعة السيدة مريم لربها بشكل بالغ، إذ كانت طاعتها طاعة كاملة. فتجد أبيفانوس Epiphanius يصف مريم العذراء بانها الوسيلة officinal التي أنقذ الله من خلالها الجنس البشري كلّه. في حين وصف كيريلوس السكندري Cyrillus of Alexandria السيدة مريم بانّها معبد الله، لأن الوجود الإلهي إتخذها معبداً له.[1]

وظهر كتيب سري إسمه (معراج مريم) وهو يتحدث

---

(١) ينظر: تاريخ النساء الفلاسفة: اشراف ماري إيلين ويث، ترجمة د. محمد مراد ، نشر دار الوفاء، الاسكندرية، ط١: ص٢٧٧ وما بعدها.

عن موت السيدة مريم عليها السلام، ويتخيل عروجها إلى السماء، وينسب إليها عجائب ومعجزات جاءت بها على الأرض، ومع أن الأناجيل الأربعة التي اعتمدتها الكنيسة رسمياً لا تفي مريم عليها السلام حقها، بل تكاد توهم بأنها أقلّ تفضلاً من أتباع المسيح، وأنها كانت امرأة عادية أنكر عليها السيد المسيح فضل أمومتها وأشاح بوجهه عنها متسائلاً: من هي أمّي؟ وهذا ما ذكر في إنجيل مرقس حيث جاء فيه: (وجاء إخوته وأمّه، فوقفوا خارج البيت وأرسلوا إليه من يدعونه. وكان قد جلس حوله جمع كبير، فقالوا له: ((ها إن أمّك وإخوتك في الخارج يطلبونك)) فأجابهم: ((من أمّي وإخوتي؟)) ثم أدار نظره في الجالسين حوله وقال: ((هؤلاء هم أمّي وإخوتي، لأن من يعمل بإرادة الله هو أخي وأختي وأمّي! ))).[1]

ولكن كاتب هذا المعراج ينسب إليها أفعال الألوهة،

---

(١) مرقس٣: ٣١-٣٥

ويضفي عليها صفات الآلهة الوثنية في حضارات الشرق الأوسط القديمة.

ومعراج مريم، ويسمى أحياناً بإنجيل مريم مكتوب باليونانية، ومنه نسخة باللاتينية. وتقول الموسوعة اللاهوتية التي نشرها الأب مينيه عام ١٨٥٦ (المجلد الثالث والعشرون) أن هناك نسخة بالعربية، وأن النص اليوناني يعود إلى القرن الثالث الميلادي، أو الرابع.

وكان لهذا المعراج أو الإنجيل تأثير كبير على كنائس الشرق والغرب، كما أنه سجل خطياً ديانة عبادة العذراء على طريقة ديانات الحضارات الشرق أوسطية القديمة، برغم أن الأناجيل الأربعة كما ذكرنا لا تشير إلى موت مريم. وليس هناك من ذكر إلى عروجها إلى السماء. ومع انتشار هذا الإنجيل بين البسطاء من المسيحيين وتأصل أفكاره بين كثير من المؤمنين، اضطرت البابوية إلى أن تضيف عقيدة عبادة العذراء إلى بقية عقائدها وعباداتها، وصارت أسطورة عروج

السيدة مريم إلى السماء ركناً من أركان الإيمان.(١)

وهناك نص يذكر معراج مريم- إنجيل مريم- يقرر فيه رسل المسيح أو حواريه في روما إكرام ذكرى مريم عليها السلام في ثلاث مناسبات وثنية حيث جاء فيه: (وقال الحواريون: إننا نريد أن نكرم ذكراها ثلاث مرات في السنة لأننا نعرف أن الملائكة جميعاً تحيي عيدها وتسعد به، ولأن الأرض ستعرف خلاصها بها.

وقرر الحواريون أن يحيوا ذكرى مريم أول مرة في اليوم الثاني لولادة المسيح وذلك من أجل أن يبيد الجراد المختبئ في الأرض وتخصب المواسم، ومن أجل أن تحمي الملوك وتقيهم التحارب والتقاتل، وقرروا أن يحتفلوا بذكراها ثانية في منتصف آيار لكي لا تظهر حشرات الأرض وتفني الزرع

---

(١) ينظر: الأصول الوثنية للمسيحية: إدغار ويند وآخرون، ترجمة سميرة عزمي الزين، نشر المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م: ص١٥١ وما بعدها.

والضرع، وحتى تبعد شبح المجاعة القاتلة. وأتفقوا أن يحيوا ثالث ذكراها في الخامس عشر من آب، وهو اليوم الذي رحلت فيه مريم عن هذا العالم، وعرجت إلى السماء ، ولأنه كذلك اليوم الذي أتت فيه بالمعجزات والذي تينع فيه الثمار على أشجارها.[1]

هذا وقد خصصت الكنيسة الكاثوليكية يوم ١٥آب عيداً رسمياً تحتفل به بصعود مريم عليها السلام. وكان البابا بيوس الثاني عشر قد تبنى هذه العقيدة رسمياً في ١ تشرين الثاني ١٩٥٠م، لكنه ميز بين تبني عقيدة صعود مريم إلى السماء المستمدة من هذا (الإنجيل)، وبين الإنجيل نفسه الذي ما زالت الكنيسة ترفضه وتعتبره من نصوص الهرطقة.[2]

---

(١) المصدر نفسه: ص١٥٤.

(٢) المصدر نفسه: ص١٥٢.

# علماء المسلمين ومسألة نبوّة النساء

والآن لنأتي ونرى رأي العلماء المسلمين في مسألة نبوّة النساء عامة ونبوّة مريم خاصّة، فهناك شبه إجماع بين علماء ومفسري المسلمين الكلاسيكيين والمحدثين في مسألة حصر النبوّة بالرجال دون النساء، إلّا القليل الذي توقف أو شذ عن هذا الإجماع، نذكر منهم المفسرين ابن حزم، والقرطبي وكلاهما من المغاربة الأندلسيين، ولربما يكون هناك تأثير عليهما، وكذلك على موقف ابن رشد الفلسفي المنفتح على المرأة، نتيجة الإنفتاح التي تمتعت به المرأة في البيئة الأندلسية وأجوائها الثقافية والإجتماعية الخاصة. والتي إختلفت عن بيئة الشرق الإسلامي في أبعاد كثيرة.

## رأي ابن حزم الأندلسي والرد عليه

وسنعرض الآن رأي كل منهما في هذه المسألة ثم بعدها نناقش كلا الرأيين، فقد قال ابن حزم: هذا فصل لا نعلمه

حدث التنازع العظيم فيه، إلّا عندنا بقرطبة وفي زماننا فإن طائفة ذهبت إلى إبطال كون النبوّة في النساء جملة، وبدّعت من قال ذلك، وذهب طائفة إلى القول بأنه قد كانت في النساء نبوّة، وذهبت طائفة إلى التوقف في ذلك.

ثم قال: وما نعلم للمانعين من ذلك حجة أصلاً إلّا أن بعضهم نازع في ذلك بقول الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ). وهذا أمر لا ينازعون فيه ولم يدّع أحد أن الله تعالى أرسل امرأة، وإنّما الكلام في النبوّة دون الرسالة فوجب طلب الحق في ذلك بأن ينظر في معنى لفظة النبوّة في اللغة التي خاطبنا الله بها عزّ وجل، فوجدنا هذه اللفظة مأخوذة من الإنباء وهو الإعلام. فمن أعلمه الله عزّ وجل بما يكون قبل أن يكون أو أوحى إليه منبئًا له بأمر ما فهو نبي بلا شك، وليس هذا من باب الإلهام الذي هو طبيعة كقول الله تعالى: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) ولا من باب الظن والتوهم الذي لا يقطع بحقيقته إلّا المجنون ولا من باب الكهانة التي هي من إستراق الشياطين السمع من السماء

فيرمون بالشهب الثواقب وفيه يقول الله عزّ وجل: (شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) وقد انقطعت الكهانة بمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من باب النجوم التي هي تجارب تتعلم ولا من باب الرؤيا التي لا يدرى أصدقت أم كذبت، بل الوحي الذي هو النبوّة قصد من الله تعالى إلى إعلام من يوحي إليه بما يعلمه به، ويكون عند الوحي به إليه حقيقة خارجة عن الوجوه المذكورة، يحدث الله عز وجل لمن أوحى به إليه علماً ضرورياً بصحة ما أوحى به كعلمه بما أدرك بحواسه وبديهة عقله سواء لا مجال للشك في شيء منه، أمّا بمجيء الملك به إليه وإمّا بخطاب يخاطب به في نفسه، وهو تعليم من الله تعالى لمن يعلمه دون وساطة معلم فإن أنكروا أن يكون هذا هو معنى النبوّة فليعرفونا ما معناها، فإنهم لا يأتون بشيء أصلاً، فإذ ذلك كذلك فقد جاء القرآن بأن الله عزّ وجلّ أرسل ملائكة إلى نساء فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى فبشروا أم إسحاق بإسحاق عن الله تعالى، قال عزّ وجلّ:

(وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ) فهذا خطاب الملائكة لأم إسحاق عن الله عزّ وجلّ بالبشارة لها بإسحاق ثم يعقوب ثم بقولهم لها أتعجبين من أمر الله ولا يمكن البتة أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه، ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم أم عيسى عليهما السلام يخاطبها وقال لها: (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) فهذه نبوّة صحيحة بوحي صحيح ورسالة من الله تعالى إليها، وكان زكريا عليه السلام يجد عندها من الله تعالى رزقاً وارداً تمنى من أجله ولداً فاضلاً. ووجدنا أم موسى عليهما الصلاة والسلام قد أوحى الله إليها بإلقاء ولدها في اليم وأعلمها أنه سيردّه إليها ويجعله نبيّاً مرسلاً فهذه نبوّة لا شك فيها وبضرورة العقل يدرى كل ذي تمييز صحيح أنها لو لم تكن واثقة بنبوّة الله عزّ وجلّ لها لكانت بإلقائها ولدها في اليم

برؤيا تراها أو بما يقع في نفسها أو قام في هاجسها في غاية الجنون والمرار الهائج ولو فعل ذلك أحدنا لكان في غاية الفسق أو في غاية الجنون، لا يشك في هذا أحد، فصح يقيناً أن الوحي الذي ورد لها في إلقاء ولدها في اليم كالوحي الوارد على إبراهيم في الرؤيا في ذبح ولده، فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لو لم يكن نبيّاً واثقاً بصحة الوحي والنبوّة الوارد عليه من ذبح ولده، لكنه ذبح ولده لرؤيا رآها أو ظن وقع في نفسه لكان بلا شك فاعل ذلك من غير الأنبياء فاسقاً في نهاية الفسق أو مجنوناً في غاية الجنون، هذا ما لا يشك فيه أحد من الناس فصحت نبوتهن بيقين. ووجدنا الله تعالى قد قال وقد ذكر من الأنبياء عليهم السلام في سورة كهيعص ذكر مريم في جملتهم ثم قال عزّ وجلّ: (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ) وهذا هو عموم لها معهم لا يجوز تخصيصها من جملتهم وليس قوله عزّ وجلّ وأمّه صدّيقة بمانع من أن تكون نبيّة، فقد قال

تعالى: (يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ) وهو مع ذلك نبي رسول.[1]

وهنا ابن حزم قد ركز على مسألتين في إثبات النبوّة للنساء وهما:

الأولى: يقول أنه لم يدّع أحد أن الله أرسل امرأة، وإنّما الكلام في النبوّة دون الرسالة. وإنّ النبوّة مأخوذة من لفظة الإنباء وهو الإعلام، فمن أعلمه الله عزّ وجل بما يكون قبل أن يكون أو أوحى إليه منبئًا له بأمر ما فهو نبي بلا شك.

الثانية: لقد جاء في القرآن أنّ الله عزّ وجلّ قد أرسل ملائكة إلى النساء، فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى، ولا يمكن البتة أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه. وهكذا فقد أرسل جبريل إلى مريم أم عيسى عليهما

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل: أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦هـ)، وضع حواشيه أحمد شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ج٤، ص١٢ وما بعدها.

السلام يخاطبها: (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) فهذه نبوّة صحيحة بوحي صحيح ورسالة من الله تعالى إليها. وكذلك إحتج بأم موسى عليهما السلام عندما أوحى الله إليها بإلقاء ولدها في اليم وأعلمها أنه سيردّه إليها، فهي أيضاً نبوّة لا شك فيها، وبضرورة العقل فأنها لو لم تكن واثقة بنبوّة الله عزّ وجلّ لها لكانت بإلقائها ولدها في اليم برؤيا تراها، أو بما يقع في نفسها في غاية الجنون، ولو فعل أحدنا لكان في غاية الفسق أو في غاية الجنون.

ولمناقشة هاتين المسألتين نبيّن ما يلي:

أمّا بالنسبة للمسألة الأولى: فقد وقع ابن حزم في شبهة، وهي حصر مفهوم النبوّة بالإنباء أو الإعلام بما يكون قبل أن يكون وهذا المعنى إذا كانت النبوّة مشتقة من مادة نبأ، وأمّا إذا كانت مشتقة من مادة (نبو) فهو بمعنى (صاحب المقام الرفيع والشريف) كما بيّنا ذلك في الصفحات السابقة. فهو يذهب الى حصر وظيفة النبوّة بتلك الميزة دون غيرها. وقد

تناسا بأن لفظ النبوّة يرتبط بعدّة أمور على صاحبها القيام بها على أكمل وجه. وليس الأمر منوطاً بالإعلام والإخبار فقط، فإذا كان الأمر كما يذهب إليه، فما أسهله وما أهون التلبس بهكذا لفظ.

فالنبي هو الإنسان المخبر عن الله تعالى بغير واسطة أحد من البشر، أعمّ من أن يكون له شريعة كمحمد صلى الله عليه وآله- أو ليس له شريعة كيحيى عليه السلام- مأموراً من الله تعالى بتبليغ الأوامر والنواهي الى قوم أم لا.

والرسول هو الإنسان المخبر عن الله تعالى بغير واسطة من البشر وله شريعة، أما مبتدئة كآدم عليه السلام أو تكملة لما قبلها كمحمد صلى الله عليه وآله مأمور من الله بتبليغ الأوامر والنواهي الى قوم.[1]

---

(١) النكت الإعتقادية: الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم ابي عبد الله العكبري البغدادي (٣٣٦- ٤١٣هـ)، تحقيق رضا المختاري، نشر المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، قم، ط١، ١٤١٣هـ: ص٣٤.

والأنبياء مهماتهم كثيرة، فشأنهم كبير وفاعل في المكان الذي يتواجدون فيه، ولا يمكن حصره في الإخبار والإنباء عن الأمور المستقبلية، فما ذكر عنهم في القرآن الكريم يضفي عليهم مهام كثيرة كانت تستدعي مواجهتهم من قبل الكافرين والمنافقين وكما قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) سورة الفرقان: ٣١، وقوله تعالى: (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) سورة الزخرف: ٧، وقوله تعالى: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) سورة الأنفال: ٦٧. فإذا كانت مهمة النبي تقتصر على الإنباء والإعلام، فلماذا يعاديه هذا الكم من العناوين، بحيث يصل الأمر الى أن يكون له أسرى نتيجة الحروب؟.

فالحقيقة أن الأنبياء مهمتهم هي هداية الناس، ويقدّمون للبشرية خدمات يكون لها بالغ الأثر في إصلاح مجتمعاتهم وأقوامهم، وكان لهم دورٌ يزيحون من خلاله الحجب عن بعض الحقائق المجهولة وأسرار الطبيعة، وكذلك تقديم الحلول للكثير من المشاكل الإجتماعية

وحسن التدبير لأمورهم، فهم والحال هذه يعيشون ضمن المجتمع ويشاركون افراده مآسيهم وأفراحهم، ولا يبخلون بشيء يساهم في تحقيق هذا الأمر، فهم وإن لم تنزل عليهم شريعة خاصة بهم، لكنهم يعملون بشريعة من سبقهم من الرسل أو من عاصرهم، فيجّدون في تطبيقها. مضافاً الى أمر في غاية الأهمية، ألا وهو تقوية أسس التوحيد، ومحاربة الكفر والشرك، وكذلك لهم دور في الفصل في الخصومات وحل الخلافات كما قال تعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) سورة البقرة: ٢١٣، فهل كان هذا الشيء موجوداً لدى مريم عليها السلام، أو غيرها من النساء، وهل مارست دوراً واحداً من أدوار النبوّة؟

ثم هناك شيء آخر مهم، يمكننا طرحه الآن، ألا وهو إنّ مريم عليها السلام لم تخبرنا قصص الأناجيل، ولا آيات القرآن الكريم التي ذكرت فيها مريم عليها السلام مقطعاً

قصصياً يعلمنا فيه بأن العذراء مريم قد مارست دوراً أنبأت فيه عن حوادث سوف تحدث في المستقبل، لكي ينطبق عليها تعريف النبوّة الذي طرحه ابن حزم الأندلسي وهو؛ الإنباء بما يكون قبل أن يكون! أو أنها أنذرت قومها أو طلبت منهم الثبات والإلتزام بشريعة ما أو غيرها من واجبات النبوّة.

والآن سنعرض بعضاً مما ورد في الأناجيل بشأن مريم عليها السلام، وكذلك نعرض بعض الآيات القرآنية في شأنها، لنعرف دورها الذي وجدت فيه وهي في هذه الدنيا، ونحاول أن نوازيه بأدوار النبوّة بأي دور من أدوارها التي طرحت في تعاريف بعض المفسرين، وهل سنجد مفهوماً واحداً يرتبط إرتباطاً وثيقاً بمريم عليها السلام كي يمكن أن تكون نبيّة.

## مريم عليها السلام في الأناجيل:

من الصعب أن نجد في مريم عليها السلام مواصفات النبوّة وواجباتها من خلال ما ذكرت فيه، سواء في الأناجيل أو في القرآن الكريم، الذي بيّنا فيه بعضاً من أوضاعها وشؤونها

البارزة والمؤثرة في نقطة محورية قد أعتمد عليها عيسى عليه السلام في اثبات نبوته وخطورة رسالته. فكل ما ذكر حولها في كتب الأناجيل ما يقارب (١٩) مرّة، بالرغم من أن أسفار العهد الجديد قد بلغت ٢٧ سفراً، مقابل ما ذكر في القرآن الكريم نحو (٤٣) مرّة، لم نجد آية واحدة ذكرت محوراً من محاور النبوّة فيها. ولنذكر على سبيل المثال ما جاء حول مريم عليها السلام في الأناجيل:

١- (أمّا يسوع المسيح فقد تمت ولادته هكذا: كانت أمّه مريم مخطوبة ليوسف، وقبل أن يجتمعا معاً، وجدت حبلى من الروح القدس. وإذ كان يوسف خطيبها بارّاً، ولم يرد أن يشهّر بها، قرر أن يتركها سرّاً. وبينما كان يفكر في الأمر، إذا ملاك من الربّ قد ظهر له في حلم يقول: ((يا يوسف ابن داود! لا تخف أن تأتي بمريم عروسك إلى بيتك، لأن الذي هي حبلى به إنّما هو الروح القدس. فستلد ابناً، وأنت تسميه يسوع، لأنه هو الذي يخلّص شعبه من خطاياهم)). متي ١ : ١٨- ٢١.

٢- (وجاء إخوته وأمّه، فوقفوا خارج البيت وأرسلوا إليه من يدعونه. وكان قد جلس حوله جمع كبير، فقالوا له: ((ها إن أمّك وإخوتك في الخارج يطلبونك)) فأجابهم: ((من أمّي وإخوتي؟)) ثم أدار نظره في الجالسين حوله وقال: ((هؤلاء هم أمّي وإخوتي، لأن من يعمل بإرادة الله هو أخي وأختي وأمّي!))) مرقس٣: ٣١-٣٥.

٣- (فلمّا رأياه دهشا وقالت له أمّه: «يا بني، لماذا عملت بنا هكذا؟ فقد كنّا، أبوك وأنا، نبحث عنك متضايقين!» فأجابهما: «لماذا كنتما تبحثان عنّي؟ ألم تعلما أن عليّ أن أكون في ما يخصّ أبي؟» فلم يفهما ما قاله لهما. ثم نزل معهما ورجع إلى الناصرة، وكان خاضعاً لهما. وكانت أمّه تحفظ هذه الأمور كلها في قلبها) لوقا٢: ٤٨- ٥١.

٤- (أرسل الملاك جبرائيل من قبل الله إلى مدينة بالجليل اسمها الناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل اسمه يوسف،

من بيت داود، وإسم العذراء مريم. فدخل الملاك وقال لها: «سلام، أيتّها المنعم عليها! الربّ معك: مباركة أنت بين النساء». فاضطربت لكلام الملاك، وساءلت نفسها: «ما عسى أن تكون هذه التحية!» فقال لها الملاك: «لا تخافي يا مريم، فإنك قد نلت نعمة عند الله! وها أنت ستحبلين وتلدين إبناً وتسمينه يسوع. إنه يكون عظيماً، وابن العلي يدعى، ويمنحه الربّ الإله عرش داود أبيه، فيملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولن يكون لملكه نهاية.

فقالت مريم للملاك: «كيف يحدث هذا، وأنا لست أعرف رجلاً؟» فأجابها الملاك: «الروح القدس يحلّ عليك، وقدرة العليّ تظللك) لوقا١ : ٢٦- ٣٥.

٥- (فقالت مريم: «ها أنا عبدةُ الربّ. ليكن لي كما تقول!» ثم انصرف الملاك من عندها. وفي تلك الأيام، قامت مريم وذهبت مسرعة إلى الجبال، قاصدة إلى مدينة من

مدن يهوذا. فدخلت بيت زكريا وسلّمت على أليصابات. ولما سمعت أليصابات سلام مريم، قفز الجنين داخل بطنها. وامتلأت أليصابات من الروح القدس، وهتفت بصوت عال قائلة: «مباركة أنت بين النساء! ومباركة ثمرة بطنك! فمن أين لي هذا: أن تأتي إلي أم ربّي؟ فإنّه ما إن وقع صوت سلامك في أذني حتى قفز الجنين ابتهاجاً في بطني: فطوبى للتي آمنت أنه سيتم ما قيل لها من قبل الربّ) لوقا١ : ٣٨- ٤٥.

٦- ( فقالت مريم: «تعظم نفسي الربّ، وتبتهج روحي بالله مخلّصي. فإنه نظر إلى تواضع أمته، وها إن جميع الأجيال من الآن فصاعداً سوف تطوّبني، فإن القدير قد فعل بي أموراً عظيمة، قدوس اسمه، ورحمته للذين يتقونه جيلاً بعد جيل. فعمل بذراعه قوّة، شتت المتكبرين في نيات قلوبهم. أنزل المقتدرين عن عروشهم، ورفع المتواضعين. أشبع الجياع خيرات، وصرف الأغنياء فارغين. أعان إسرائيل فتاه، فتذكر

الرحمة، كما تكلم إلى آبائنا، لإبراهيم ونسله إلى الأبد».
وأقامت مريم عند أليصابات نحو ثلاثة أشهر، ثم رجعت
إلى بيتها) لوقا١: ٤٦- ٥٦.

٧- (فباركهما سمعان، وقال لمريم أم الطفل: «ها إن هذا الطفل قد جعل لسقوط كثيرين وقيام كثيرين في إسرائيل، وآية تقاوم حتى أنت سيخترق نفسك سيف لكي تنكشف نيات قلوب كثيرة) لوقا٢: ٣٤- ٣٥.

٨- (ولما انصرف الملائكة عن الرعاة إلى السماء، قال بعضهم لبعض: «لنذهب إذن إلى بيت لحم، وننظر هذا الأمر الذي حدث وقد أعلمنا به الربّ» وجاءوا مسرعين، فوجدوا مريم ويوسف، والطفل نائماً في المذود. فلما رأوا ذلك، أخذوا يخبرون بما قيل لهم بخصوص هذا الطفل. وجميع الذين سمعوا بذلك دهشوا مما قاله لهم الرعاة. وأمّا مريم، فكانت تحفظ هذه الأمور جميعاً، وتتأملها في قلبها. ثم رجع

الرعاة يمجدون الله ويسبحونه على كل ما سمعوه ورأوه كما قيل لهم) لوقا٢: ١٥- ٢٠.

## مريم عليها السلام في القرآن

١- (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) سورة آل عمران: ٣٧.

٢- (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) سورة آل عمران: ٤٢.

٣- (يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) سورة آل عمران: ٤٣.

٤- (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) سورة آل عمران: ٤٤.

٥- (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) سورة آل عمران: ٤٥.

٦- (قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) سورة آل عمران: ٤٧.

٧- (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ...) سورة النساء: ١٧١.

٨- (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا) سورة مريم: ١٦.

٩- (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ) سورة مريم: ١٧.

١٠- (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا) سورة مريم: ١٨.

١١- (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ) سورة مريم: ٢٠.

١٢- (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ) سورة مريم: ٢٢.

١٣- (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا) سورة مريم: ٢٣.

١٤- (فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) سورة مريم: ٢٤.

١٥- (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) سورة مريم: ٢٥.

١٦- (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) سورة مريم: ٢٦.

١٧- (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا) سورة مريم: ٢٧.

١٨- (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) سورة مريم: ٢٩.

١٩- (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ) سورة المؤمنون: ٥٠.

٢٠- (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) سورة التحريم: ١٢.

ونحن نرى هنا أن ما جاء في الأناجيل وفي آيات القرآن الكريم لم يظهرا لنا مريم عليها السلام بصفة النبوّة، وتحمّل آثارها الإجتماعية، ومواقفها العقائدية التي تستدعي المواجهة وقد تصل الى حد القتال، والتي من الممكن أن نلاحظ بعضاً من جهاتها من خلال الآيات المباركة بشأن النبوّة:

١- (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) سورة الفرقان: ٣١.

٢- (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) سورة الأنعام: ١١٢.

٣- (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) سورة آل عمران: ١٦١. وفي هذه الآية المباركة لنا وقفة لابد منها؛ فكلمة الغلّ التي وردت في الآية لها عدّة معان منها:

الغلّ: الحقد الكامن، والمغلّ: الخائن، والغُلولُ: خيانة الفيء، وفي الحديث: (لا إسلالَ ولا إغلالَ) أي: لا خيانة ولا سرقة.[1]

---

(١) كتاب العين: أبي عبد الله الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٥هـ)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م: مادة غلّ.

وقد ذكر صاحب كتاب الميزان في تفسير قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ)، الغلّ هو الخيانة، وفي هذا السياق معناه تنزيه ساحة النبي عن السوء والفحشاء بطهارته، والمعنى: حاشا أن يغلّ ويخون النبي ربّه أو الناس (وهو أيضاً من الخيانة لله) والحال أن الخائن يلقى ربّه بخيانته ثم توفّى نفسه ما كسبت.[١]

فالآية هنا لها دور طليق بالنسبة لمطلق الخيانة عن ساحة النبوّة، فتشمل كافة الشؤون لنزولها وسواها مما لم تحصل، إجتثاثاً للغلول عن هذه الساحة السامية عن بكرته وبكرتها، سواء أكانت خيانة في الرسالة، أم في الغنائم الحربية إختصاصاً بنفسه أم في تقسيمها أم في قبولها أم في السكوت عنها، ومن قوله صلى الله عليه

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م: ج٤، ص٥٧.

وآله: (اجتنبوا الغلول فإنّه عار وشنار ونار).[١]

وهذا يعني أن هناك علاقة وتفاعل بين النبي وبين الناس، ولذلك يستدعي هذا التعامل وجود نوع من الأحداث أو الظروف التي يتواجه فيها النبي معهم، وينتج عن طريق تلك المواجهة نوع من التعاملات والمواقف، قد يساء الفهم أو يثار الشك لدى المنافقين والشكاكين ضد النبي نتيجة موقف ما، ولذلك نبّه الله تعالى من كان يشك بالنبوّة وأفعالها وصدقها، بأنّه لا يوجد نبي على وجه الإطلاق يعرف معنى الخيانة أو أن يتعلق هذا المسمى به ولو بلمح البصر.

فأين هذه المواقف والتعاملات مع مريم عليها السلام، فلم يحدث مثل هذا الشيء معها إطلاقاً، بل الأكثر من ذلك ذهب صاحب التحرير والتنوير الى أن المقصود

---

(١) ينظر: الفرقان في تفسير القرآن: الدكتور محمد الصادقي، نشر دار الأميرة، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م: ج٥، ص٢٩١.

بهذا الخطاب ليس النبي، وإنّما أمته هي المعنية بعدم الغلّ حيث يقول: نبهوا- أي جيش المسلمين- إلى شيء يستخف به الجيش في الغزوات، وهو الغلول ليعلموا أن ذلك لا يرضي الله تعالى فيحذروه ويكونوا مما هو أدعى لغضب الله أشدّ حذراً فهذه مناسبة التحذير من الغلول، ويعضّد ذلك أن سبب هزيمتهم يوم أحد هو تعجلهم إلى أخذ الغنائم.

والغلول: تعجّل بأخذ شيء من غال الغنيمة. ولا تجد غير هذا يصلح لأن يكون مناسباً لتعقيب آية النصر بآية الغلول، فإن غزوة أحد التي أتت السورة على قصتها لم يقع فيها غلول ولا كائن للمسلمين فيها غنيمة، وما ذكره بعض المفسرين من قضية غلول وقعت يوم بدر في قطيفة حمراء أو في سيف لا يستقيم هنا لبعد ما بين غزوة بدر وغزوة أحد، فضلاً على ما ذكره بعضهم من نزول هذه الآية في حرص الأعراب على قسمة الغنائم يوم

حنين الواقع بعد غزوة أُحد بخمس سنين.[١]

فإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن لكل نبي أمة وجماعة يتبعونه، وما دام يطيعون وينقادون للنبي المرتبط بالسماء فعليهم أن لا يخونوا أو يفعلوا ما يشين هذا الإتباع، وليت عمري من أين لمريم عليها السلام هذا الإتباع والإنقياد من قبل قومها؟!.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) سورة الأنفال: ٦٧، ولعلها تكون أشدّ وضوحاً مما قد يتعلق بواجبات النبوّة من أجل إثبات الحق والعمل بشريعة الله، مما قد يستدعي الحروب والبأس الشديد في سوح الوغى، وهو

---

(١) تفسير التحرير والتنوير (المعروف بتفسير ابن عاشور): الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، نشر مؤسسة التاريخ، بيروت، ط١ بدون سنة طبع: ج٣، ص٢٧٤.

يواجه اعداء الله، حتى يصل الأمر الى أخذ الأسرى وغيرها من لوازم الحروب.

والآن أيضاً نتساءل هل حصل مثل هذا مع مريم عليها السلام. وحتى إن لم يحصل واقعاً، فهل كانت هي مستعدة للقيام بهذا الدور فيما لو فرض حدوثه؟.

٤- قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ) سورة الأعراف: ٩٤.

٥- (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ) سورة آل عمران: ٧٩.

ومحصل الكلام في هذه الآية أن البشر الذي هذا شأنه إنّما يدعوكم إلى التلبس بالإيمان واليقين بما في الكتاب الذي تعلمونه وتدرسونه من أصول المعارف الإلهية، والإتصاف والتحقق بالملكات والأخلاق الفاضلة التي

يشتمل عليها، والعمل بالصالحات التي تدعون الناس إليها حتى تنقطعوا بذلك إلى ربكم، وتكونوا به علماء ربانيين.»[1]

فهل قالوا عن مريم عليها السلام ظلماً أو جهلاً بأنها هي الربّ، بحيث يوجه لهم هذا الخطاب الإلهي الكاشف عن غيّهم وقولهم على الأنبياء بغير الحق. ثم علينا أن نفهم أن ما حدث مع مريم عليها السلام، كان على وجه الكرامة لتلك السيدة العظيمة ولم يحدث على وجه المعجزة، فهناك فرق بين المعجزة والكرامة. فإن الإتيان بالعمل الخارق للعادة الذي يقترن مع دعوى النبوّة، ويتفق مع الادعاء، يسمى معجزة، وأمّا إذا صدر العمل الخارق للعادة من عبد لله صالح لم يدّع النبوة سُمي كرامة.

ومما يشهد بأن عباد الله الصالحين من غير الأنبياء قادرون أيضاً على الإتيان بالأعمال الخارقة للعادة، نزول الطعام السماوي على السيدة مريم، وانتقال عرش بلقيس

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٣، ص٢٧٦.

ملكة سبأ في سرعة خاطفة من اليمن إلى القدس على يد فرد بارز من أنصار النبي سليمان وهو (آصف بن برخيا)، وقد أخبر القرآن الكريم بكلا الحدثين، اذ قال تعالى في شأن مريم عليها السلام: (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا) سورة آل عمران: ٣٧، وقال تعالى حول حادثة عرش بلقيس: (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)[1] سورة النمل: ٤٠.

ثم نحن نعتقد بعصمة جميع الأنبياء، ولكن لا نرى أن العصمة تلازم النبوّة ، أي أننا لا نرى أن كل معصوم هو نبي بالضرورة، وإنْ كان كلّ نبي معصوم بالضرورة، فربّ إنسان معصوم، ولكنه ليس بنبي، فها هو القرآن الكريم يقول عن

---

(١) العقيدة الإسلامية: العلّامة المحقق جعفر السبحاني، نقله الى العربية جعفر الهادي، نشر مؤسسة الإمام الصادق، قم، ط٣، ١٤٢٨هـ: ص١٢٣ . وينظر: دروس في العقيدة الإسلامية: محمد تقي مصباح اليزدي: ص٢١٦ وصراط الحق لمحمد آصف الحسني: ج٣، ص٤٢.

السيدة مريم عليها السلام: (يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) سورة آل عمران: ٤٢، فإن استخدام القرآن الكريم للفظة الاصطفاء في شأن السيدة مريم يدل على عصمتها، لأن نفس هذه اللفظة (الإصطفاء) استخدمت في شأن الأنبياء سلام الله عليهم أيضاً: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) سورة آل عمران: ٣٣، بل الأكثر من ذلك فإن الإصطفاء الإلهي لم ينحصر بالأنبياء والأولياء فقط، وإنّما الله تعالى قد صرّح بكتابه الكريم بأنه اصطفى غير الأنبياء ومن غير الأولياء الكمّل، حيث قال تبارك وتعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ) سورة فاطر: ٣٢.

هذا مضافاً إلى أن الآية قد تحدثت حول طهارة السيدة مريم عليها السلام، والمقصود هو طهارتها من أي نوع من أنواع الرجس والمعصية، وليست هذه الطهارة والبراءة، هو براءتها من الذنب الذي رمتها اليهودية في مجال ولادة عيسى

عليه السلام منها بدون أب، لأن تبرئة مريم من هذه المعصية ثبتت في الأيام الأولى لولادة عيسى عليه السلام بتكلمه، فلم تعد حاجة إلى بيان ذلك مجدداً.

أضف إلى ذلك أن الآية تتحدث عن مريم قبل أن تحمل بالمسيح، حيث جاء حديث حملها له عبر هذه الآية فلاحظ.[1]

أما الرد على ما يخص المسألة الثانية التي أثارها ابن حزم الأندلسي لإثبات نبوّة مريم عليها السلام عندما قال: أنّ الله عزّ وجلّ قد أرسل ملائكة إلى النساء، فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى، ولا يمكن أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه. وهكذا فقد أرسل جبريل إلى مريم أم عيسى عليهما السلام يخاطبها: (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) فهذه نبوّة صحيحة ورسالة من الله تعالى إليها. وكذلك إحتج بأم موسى عليهما السلام

(١) العقيدة الإسلامية، مصدر سابق: ص١٣٩.

عندما أوحى الله إليها بإلقاء ولدها في اليم، فهي أيضـًا نبوّة لا شك فيها، وبضرورة العقل فأنها لو لم تكن واثقة بنبوّة الله عزّ وجلّ لها لكانت بإلقائها ولدها في اليم برؤيا تراها، أو بما يقع في نفسها في غاية الجنون والفسق.

فهنا أيضـًا يرد عليه، لأنه وقع أيضـًا في شبهة، فالوحي من الله تعالى الى عباده لا يقتصر على الأنبياء والرسل فقط- هذا فضلاً عن وجود الوحي الخاص بالحيوان والموجودات الكونية الأخرى- وإنّما يشمل غيرهم من البشر، فماذا يقول عن الوحي الذي حصل لحواريّ عيسى عليه السلام، فهل نقول عنهم، أو نسّميهم أنبياء، بمجرد أن أوحى الله إليهم وكما جاء في القرآن الكريم: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ) سورة المائدة: ١١١.

ثم انّ للوحي في القرآن معنى واسعـًا لا ينحصر في الوحي الذي ينزل على الأنبياء، بل أن الإلهام الذي ينزل على

قلوب الناس يعتبر من مصاديقه أيضـاً، لذلك جاء هذا المعنى في الآية (٧) من سورة القصص بشأن أم موسى التي أوحي إليها إذ قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) سورة القصص: ٧، بل إن الكلمة تطلق في القرآن حتى على الغرائز التكوينية عند الحيوان، كالنحل.[1]

والوحي إن كان في مورد إبلاغ الأحكام والحقائق الإلهية، فلابد من أن يتحقق بوسيلة رسول أمين طاهر لا ينطق عن الهوى، ولا يتمايل الى جانب خلاف الحق، فيكون حجة تامة من الله تعالى.

وأمّا في موارد شخصية أو عرفية إجتماعية، فلا إشكال

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: العلّامة الفقيه ناصر مكارم الشيرازي، نشر دار احياء التراث العربي، بيروت،ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م:ج٤، ص١٨٩.

في تحققه بوسائط مختلفة، إذا أريد منه هدايتهم الى ما فيه صلاحهم، وهذا لطف منه تعالى في مورد عباده المتوجهين إليه المتوقعين منه. هذا وقد ذكر العلّامة المصطفوي أربعة عشر قسماً من أقسام الوحي ذكرنا قسماً منها في الأورق السابقة فراجع.

ومما يدل أيضاً على أن ليس كل من خاطبته الملائكة فهو نبي، ما جاء في صحيح مسلم حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (أنّ رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مَدْرجته مَلكاً ، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى، قال: فإنّي رسول الله إليك بأن الله أحبك كما أحببته فيه).

## رأي القرطبي والرد عليه

أما المفسر الثاني الذي ذهب الى القول بنبوّة مريم عليها السلام فهو القرطبي ففي تفسير قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَتِ

الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) سورة آل عمران: ٤٢، فيقول: قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ) أي اختارك و(طَهَّرَكِ) أي من الكفر، عن مجاهد والحسن. الزجاج: من سائر الأدناس، من الحيض والنفاس وغيرهما، واصطفاك لولادة عيسى. (عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) يعني: عالمي زمانها، عن الحسن وابن جريج وغيرهما، وقيل: (عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) أجمع إلى يوم الصّور، وهو الصحيح على ما نبيّنه، وهو قول الزجّاج وغيره. وكرر الإصطفاء لأن معنى الأول: الإصطفاء لعبادته، ومعنى الثاني: لولادة عيسى. وروى مسلم عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران، وآسيا امرأة فرعون، وإن فضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام).

ثم يقول قال علماؤنا رحمة الله عليهم: الكمال هو التناهي والتمام؛ ويقال في ماضيه: (كمل) بفتح الميم

وضمها، و(يكمل) في مضارعة بالضم، وكمال كل شيء بحسبه، والكمال المطلق إنما هو لله تعالى خاصة. ولا شك أن أكمل نوع الإنسان الأنبياء، ثم يليهم الأولياء من الصّدّيقين والشهداء والصالحين. وإذا تقرر هذا فقد قيل: إن الكمال المذكور في الحديث يعني به النبوّة، فيلزم عليه أن تكون مريم عليها السلام وآسية نبيتين، وقد قيل بذلك. والصحيح أن مريم نبيّة، لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين حسب ما تقدم، ويأتي بيانه أيضاً في (مريم). وأمّا آسيا فلم يرد ما يدل على نبوتها دلالة واضحة، بل على صدّيقيّتها وفضلها. وروي من طرق صحيحة أنه عليه الصلاة والسلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة: خير نساء العالمين أربع: مريم بنتُ عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد. ومن حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسيا بنت مزاحم امرأة

فرعون، وفي طريق آخر عنه: (سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم فاطمة وخديجة) فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم، من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة، فإن الملائكة قد بلَّغتها الوحي عن الله عزّ وجلّ بالتكليف والإخبار والبشارة، كما بلّغت سائر الأنبياء، فهي إذن نبيّة، والنبي أفضل من الولي، فهي أفضل من كل النساء؛ الأولين والآخرين مطلقاً، ثم بعدها في الفضيلة فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية. وكذلك رواه موسى بن عقبة، عن كريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سيدة نساء العالمين مريم، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسيا).... وقد خص الله مريم بما لم يؤته أحداً من النساء، وذلك أن روح القدس كلّمها وظهر لها ونفخ في درعها ودنا منها للنفخة، فليس هذا لأحد من النساء. وصدّقت بكلمات ربّها، ولم تسأل آية عندما بشّرت كما سأل زكريا عليه السلام من الآية، ولذلك سمّاها الله في تنزيله صدّيقة، فقال: (وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ) المائدة: ٧٥، وقال: (وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ

وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) التحريم :١٢، فشهد لها بالصدّيقية، وشهد لها بالتصديق لكلمات البشرى، وشهد لها بالقنوت.

وإنّما بشر زكريا بغلام، فلحظ إلى كبر سنه وعقامة رحم امرأته، فقال: أنّى يكون لي غلام وامرأتي عاقر، فسأل آية، وبشرت مريم بغلام، فلحظت أنها بكر ولم يمسسها بشر فقيل لها: (كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ) مريم: ٢١، فاقتصرت على ذلك، وصدّقت بكلمات ربّها، ولم تسأل آية ممن يعلم كنه هذا الأمر. ومن أين لإمرأة في جميع نساء العالمين من بنات آدم ما لها من هذه المناقب؟!. ولذلك روي أنّها سبقت السابقين مع الرسل إلى الجنّة، جاء في الخبر عنه صلى الله عليه وسلم: (لو أقسمتُ لبررت لا يدخل الجنّة قبل سابقي أمتي، إلّا بضعة عشر رجلاً، منهم إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، والأسباط، وموسى، وعيسى، ومريم ابنة عمران). وكان يحق على من انتحل علم الظاهر، واستدل بالأشياء الظاهرة على الأشياء الباطنة، أن يعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) وقوله

حيث يقول: (لواء الحمد يوم القيامة بيدي، ومفاتيح الكرم بيدي، وأنا أوّل خطيب وأول شفيع، وأول مبشر، وأول وأول). فلم ينل هذا السؤدد في الدنيا على الرسلِ إلّا لأمر عظيم في الباطن. وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله في التنزيل بالصدّيقية والتصديق بالكلمات إلّا لمرتبة قريبة دانية.

ومن قال: لم تكن نبيّة، قال: إن رؤيتها للملك كما رؤي جبريل عليه السلام في صفة دحية الكلبي حين سؤاله عن الإسلام والإيمان، ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء، والأول أظهر وعليه الأكثر.[1]

إذن بعد أن عرضنا رأي القرطبي عن نبوّة مريم عليها السلام، نراه قد تعرّض الى عدّة مسائل أهمها ما يلي:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (٦٧١هـ)، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م: ج٥، ص١٢٦ وما بعدها.

الأولى: إنّه فهم من الكمال المذكور في حديث: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران، وآسيا امرأة فرعون...) هو كمال النبوّة.

الثانية: قال إن ظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالِم، من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة، لأن الملائكة قد بلَّغتها الوحي عن الله عزّ وجلّ بالتكليف والإخبار والبشارة، كما بلّغت سائر الأنبياء، فهي على هذا الأساس نبيّة.

الثالثة: قد خص الله مريم بما لم يؤته أحداً من النساء. وذلك أن روح القدس كلّمها وظهر لها ونفخ في درعها ودنا منها للنفخة، فليس هذا لأحدٍ من النساء. وصدّقت بكلمات ربّها، ولم تسأل آية عندما بشّرت كما سأل زكريا عليه السلام.

أما المسألة الأولى:

فإن الكمال المذكور في الحديث الذي استشهد به، لم

يكن يتعرض الى كمال النبوّة، وإنّما كان يبيّن علو شأن تلك الأسماء التي ذكرت في سيرهن التكاملي الذي هو ما دون النبوّة، بإعتبار إشتراك نساء أخريات وجدت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وبعده، وخصوصاً أنّ الأحاديث الصحيحة والموثوقة السند من كتب العامة والشيعة كانت تؤكد على أربعة نساء وهن فاطمة الزهراء وخديجة ومريم وآسيا زوجة فرعون، ولكن لا ندري لماذا غفل القرطبي أو تناسى الأسماء الأخريات.

ثم أن الكمال يطلق هنا لتمام الشيء وتناهيه في بابه، فالمراد بلوغ النساء الكاملات النهاية في جميع فضائل النساء، وعلى ذلك يكون الكمال الوارد في الحديث غير الكمال الخاص بالأنبياء.

علماً أنّ الحديث أو الرواية التي يذكر فيها كمال وأفضلية (فاطمة، وخديجة، ومريم، وآسية) يرويه جملة من العلماء منهم الطبري بسنده عن أبي موسى الاشعري

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلّا مريم، وآسيا امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله. وكذلك ذكر هذا الحديث الزمخشري في الكشّاف في تفسير قوله تعالى: (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) في سورة التحريم، وذكره العسقلاني أيضاً في فتح الباري ج٧، ص٢٥٨، وقال أخرجه الثعلبي في تفسيره.[1]

وانّك لتشعر بضعف الحديث الذي ذكره القرطبي والذي جاء فيه (ذكر فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) عندما تجد آخره لا يناسب ما ابتدأ به، فهو يتكلم بدءاً عن الكمال عند النساء وذكر إسمين ثم قال (... وإن فضل عائشة على النساء ...)، فضعف هذا الحديث

---

(١) فضائل الخمسة من الصحاح الستة: السيد مرتضى الحسيني الفيروز آبادي، تحقيق المجمع العالمي لأهل البيت، نشر المعاونية الثقافية لأهل البيت، بيروت، ط٢، ١٤٢٨هـ:ج٣، ص١٧٥.

واضح من ألفاظه، ولا يحتاج الى كثير عناء وجهد لمعرفة ذلك وخصوصاً عندما توجد أحاديث أمتن سنداً وأبين مدلولاً منه، كالذي ذكرناه، مضافاً الى ما سنذكره من الأحاديث الأخرى وهي في نفس هذا السياق والتي تبيّن أفضلية وكمال تلك النساء الأربعة:

- (إن الله اصطفى على نساء العالمين أربعاً: آسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم).[1]
- (عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خير نساءِ العالمين أربع، مريم بنت عمران، وآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم).[2]

---

(١) المصدر نفسه: ج٣، ص١٧٥ نقلاً عن السيوطي في الدر المنثور، في ذيل تفسير قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ).

(٢) المصدر نفسه: ج٣، ص١٧٣ نقلاً عن تفسير ابن جرير ج٣، ص١٨٠، والإستيعاب لابن عبد البر ج٢، ص٧٢٠.

- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (حسبك من نساء العالمين مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ،وآسية امرأة فرعون).[١]

- عن عائشة قالت لفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أبشرك أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: سيدات نساء أهل الجنّة أربع مريم بنت عمران، وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخديجة بنت خويلد، وآسية.[٢]

- عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أربع نسوة سيدات سادات عالمهن، مريم بنت عمران، وآسيا

---

(١) المصدر نفسه: ج٣، ص١٧٣ نقلاً عن صحيح الترمذي ج١، ص٣١، وكذلك رواه الحاكم في مستدرك الصحيحين ج٣، ص١٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ج٣، ص١٧٠ نقلاً عن مستدرك الصحيحين ج٣، ص١٨٥.

بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، وأفضلهن عالماً فاطمة سلام الله عليها.[١]

ونكتفي بهذا القدر من الأحاديث. فإذا كان الأمر بهذه الصورة، وعلى مبنى القرطبي علينا أن نعتبر كلًّا من أسية بنت مزاحم نبيّة، وخديجة بنت خويلد نبيّة، وفاطمة الزهراء نبيّة. وهذا مما لا يقول به أحد من المسلمين!.

وأمّا المسألة الثانية:

وهي بخصوص مسألة أن الله تعالى قد خصّ مريم عليها السلام بما لم يؤته أحداً من النساء، بإعتبار أن روح القدس كلّمها وظهر لها، ونفخ في درعها.

وهنا علينا أن نلتفت بأن الله تعالى أراد أن يوجد النبي عيسى عليه السلام من غير أب، فقط من امرأة، وهنا تكمن

---

(١) المصدر نفسه: ج٣، ص١٧٠ نقلاً عن ذخائر العقبى، ص٤٤.

إرادة جديدة لله تعالى في خلقه وكيفية التصرف في الإيجاد والعدم- بامرأة تقية وعدم مطلق للرجل- ولكن بالرغم من ذلك يأتي منها عيسى عليه السلام نبياً ليمارس دوره الرسالي مع بني إسرائيل، فالأمر الملفت للنظر، والذي علينا التركيز عليه، هو ذلك الإيجاد من غير أب، وإلّا رحم المرأة التقية والصالحة موجود، وإن انحصر في مريم عليها السلام لشدّة عبادتها وعفتها، ولكنه على كل حال موجود، وهذا ليس محل الغرابة في ولادة عيسى عليه السلام، وإنّما محل الإستغراب والتعجب، هو أنه كيف يولد مولود من غير أب، وتخرج من خلاله نبوّة استثنائية، بل يتفرد بها ذلك الشخص الرسالي دون غيره من الرسل والأنبياء. فهنا النقطة المفصلية، وهنا يجب التوقف، والبحث عن الأسباب التي دعت الى إيجاد مثل تلك الولادة، ولم يكن شأن التعجب والإستغراب يتعلق بمريم عليها السلام، كلا ففي الواقع أن دور مريم هو دور معدّ مسبقاً للولادة، متى ما سنحت الظروف المؤاتية لذلك. وحينئذ حتى تكتمل حادثة ولادة

عيسى عليه السلام، كان يجب أن تخبر بأداء هذا الدور، فكان لزاماً على الملائكة أن تؤدي مهمة التكلم مع مريم عليها السلام.

وفي هذا السياق يقول السيد الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: (وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) إن الإصطفاء المتعدي بـ (على) يفيد معنى التقدم، وأنه غير الإصطفاء المطلق الذي يفيد معنى التسليم، وعلى هذا فاصطفائها على نساء العالمين تقديم لها عليهن.

وهل هذا التقديم تقديم من جميع الجهات، أو من بعضها؟ ظاهر قوله تعالى فيما بعد الآية: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ ) الآية، وقوله تعالى: (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) الأنبياء: ٩١ وقوله تعالى: (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) التحريم: ١٢، حيث لم تشتمل مما

تختص بها من بين النساء إلّا على شأنها العجيب في ولادة المسيح عليه السلام، أن هذا هو وجه إصطفائها وتقديمها على النساء من العالمين.

وأمّا ما اشتملت عليه الآيات في قصتها من التطهير والتصديق بكلمات الله وكتبه، والقنوت وكونها محدّثة، فهي أمور لا تختص بها، بل يوجد في غيرها، وأمّا ما قيل: إنها مصطفاة على نساء عالم عصرها، فإطلاق الآية يدفعه.[١]

هذا مضافاً الى أن هناك أمر مهم آخر، ألا وهو أن نفس الملك الذي تمثل لها بشراً سوياًّ، وعدّ ذلك القرطبي من إمارات النبوّة، فإن نفس الملك قد أخبر مريم عن مهمته التي أرسل لتنفيذها، وهي أن يهب لها غلاماً زكياً، رسولاً الى بني إسرائيل، ولم يخبرها بأن الله يبشرها بأنّها قد أصبحت نبيّة، ولم يشر الملك الى ذلك، لا من بعيد أو قريب، حيث يخبرنا القرآن الكريم بالذي ارسل من أجله الملك، إذ

---

(١) الميزان في تفسير القرآن، مصدر سابق: ج٣، ص٢١٨.

قال تعالى: (قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) مريم: ١٨ – ١٩، وكذلك قوله تعالى: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ* وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) سورة آل عمران: ٤٥ – ٤٩.

## إثبات الولاية ومقام الحجية للنساء

هناك مقام في الشرائع السماوية لنماذج بشرية ليسوا برسل، وليسوا بأنبياء، وليسوا بأئمة، فالحجج الإلهية يمكن تقسيمها الى خمسة أقسام هي:

القسم الأول: مقام الرسل.

القسم الثاني: مقام الأنبياء.

القسم الثالث: مقام الإمامة.

القسم الرابع: مقام الحجة-الإصطفاء- وهو الذي ليس برسول ولا نبي ولا إمام، وهو من يكون حجة نتيجة الإصطفاء والإنتخاب، وما هو برسول ولا إ مام، نظير ما ورد في السيدة مريم عليها السلام، فهي حجة مصطفاة (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ) فـ (على) هنا يعني أنها حجّة مع انّ مريم ليست من الأقسام الثلاثة الأولى، ولكن أفعالها حجة، فكل

ما فعلته وأدلت به هو حجة، (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)) ، فقد بعثت بمهمة إلهية (فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا)، فهي كانت مأمورة من قبل السماء بوصايا إلهية في ظل نبوّة عيسى عليه السلام وتبع لنبوّته مع انها لم تكن نبيّة ولا برسول ولا إمام.

وهناك قسم خامس هو: مقام الحكمة والتعلم، مثل مقام لقمان الحكيم وآسيا بنت مزاحم.

علماً إنّ بعض المقامات الإلهية لازالت البوابة فيها مفتوحة، وأمّا النبوّة والرسالة والإمامة، بل حتى الإصطفاء ليست هي مقامات إكتسابية بل هي مقامات إصطفائية محضة، على طبق مؤهلات وقابليات في الشخص المختار بتعيين من إرادة إلهية. وبعبارة أخرى بإختيار من الله عزّ وجلّ

سابق لذوات بشرية على وفق ما علم منهم بعلم سابق أنهم سيكونون على طاعة متميزة من بين البشر، فيصطفيهم إبتداءً ويمتحنهم بقاءً، قال تعالى: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)(١) سورة القصص: ٦٨.

أمّا عن إثبات الولاية للنساء، فنحن هنا لا نتكلم عن الولاية التشريعية التي هي بمعنى إبلاغ الرسالة، فإنّها مختصة بالأنبياء- الرجال- ولكننا نريد أن نتكلم عن دائرة الولاية التكوينية فهي كما نعلم أوسع من الولاية التشريعية، بل هي شاملة لكل الأفراد، وإنّما كل إنسان يعيش بالولاية التكوينية.

وفي هذا الصدد يقول الشيخ جوادي آملي: أن كل إنسان إنّما يعيش بالولاية التكوينية، فتحريك الإنسان بدنه أي وقت شاء وتمديده في الفراش حينما يرغب، ومن ثم تخفيف

---

(١) ينظر: زينب عليها السلام سر من أسرار أهل الكساء: تقرير لمحاضرات آية الله المحقق الشيخ محمد السند، بقلم ابراهيم حسين البغدادي، نشر دار النور، النجف، ط٢، ١٤٣٤هـ: ص٢٧.

علاقته به إلى درجة حياة الأعشاب، أو إلى درجة أضعف من حياة الحيوان، ومن ثم سفره إلى عالم الرؤيا وإتيانه تجليات من ذلك العالم أيضاً بحسب درجة الصلاح التي هو فيها، فتارة بصورة حسنة وأخرى بشكل أضغاث أحلام أو سائر التصرفات اليومية التي يقوم بها كل فرد في بدنه هذه كلّها نتيجة للولاية التكوينية للروح. إذ أنه وإن كانت تصرفاتنا العادية في الأمور الخارجية بواسطة الأجزاء والأعضاء البدنية، لكن هذه التصرفات في أعضاء البدن تكون بواسطة الفكر والإرادة اللذين هما من شؤون العقل العملي والفطري. أنسنا بهذا الحد من الولاية التكوينية كمثل أنس السمك بالماء، لذا فكما أن السمك غافل عن الماء، فنحن كذلك نكون غافلين عن الولاية التكوينية للروح بالنسبة للبدن. وأرقى من هذا الحد من الولاية التصرفات التي تقوم بها الروح في خارج البدن.[1]

---

(١) ولاية الإنسان في القرآن: آية الله جوادي آملي، نشر دار الصفوة، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م: ص٢٣٠.

ومن نماذج النساء من أهل الولاية السيدة مريم عليها السلام (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) سورة آل عمران :٣٥ – ٣٧.

بعد أن صار زكريا كفيلاً لمريم عليهما السلام من قبل الله، وبعد أن بلغت الرشد تحت كفالته، كلما دخل عليها زكريا شاهد عندها طعاماً. من غير الموسم، مما استوجب أن يسألها أنّى لك هذا؟ فقالت مريم مجيبة: هو من عند الله. وهذا الجواب كان لزكريا عليه السلام بشكل يجعله يصدقه

دون توقف ودون أن يكون في حاجة للتحقيق حوله.

وفي آخر الآية تقول: (إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) وهذه الجملة ليست بمعنى أن عطاء الله لا حساب له، وذلك لأن (الحسيب) من أسماء الله، كما إنه تعالى يقول في القرآن: (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) سورة الرعد: ٨، ويقول أيضاً: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) سورة القمر: ٤٩. وإنّما المراد من هذه الجملة أن كيفية أو كمية عطاء الله كثيراً لا يحسب. أي أن الله تعالى يرزق بشكل لا يعد ولا يحسب، أو أن كيفية رزق الله بشكل لا يمكن لآخر أن يفهمه بواسطة الحساب. وعلى أية حال فهذا بنفسه نحو من الولاية، بأن يصل إنسان ليس بنبي إلى أن يعطيه الله سبحانه رزقاً كريماً بشكل لا يستطيع الآخرون فهمه.

هذا المقام الشامخ من الولاية الذي قد ظهر في مريم سلام الله عليها صار سبباً لدعاء زكريا لنيل ولد صالح كيحيى عليه السلام. إذ أن زكريا بعد أن شاهد فضيلة مريم

أحب أن يعطيه الله إبناً بهذا الشكل (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ) سورة آل عمران: ٣٨، ولذا أعطى الله سبحانه يحيى لزكريا عليهما السلام ليتمتع هو ايضاً من الرزق الكريم بغير حساب. طبعاً يحيى عليه السلام وصل إلى مقام النبوّة وصار صاحب ولاية تشريعية. أما مريم سلام الله عليها فقد كانت تتمتع بالولاية التكوينية فحسب.

والشاهد الآخر على الولاية التكوينية لمريم سلام الله عليها عدا عن تصرفها العملي في نظام التكوين، هو التصرف العملي الذي تمتلكه بصفة تنبأ عن المعجزة الآتية، وذلك حيث يقول تعالى: (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ* وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ) سورة آل عمران: ٤٥-٤٦. هذا التنبؤ هو في الواقع ظهور لمعجزة عيسى سلام الله عليه قد تحقق في والدته، إذ يقول تعالى في الآية ١١٠ من سورة المائدة عندما

يبين قصة عيسى سلام الله عليه: (إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا)، بعض المفسرين إستنتج من هذا الكلام أن في هذه الآية إعلام غيبي بأن عيسى سلام الله عليه لن يصل إلى الشيخوخة، إذ أنه قد تكلم فيها عن تكلمه في الطفولة والكهولة، والكهولة هي سني ما بين الشباب والشيخوخة أي فترة ما بعد سن الأربعين مثلاً.

وبالنسبة للتنبؤ بالمعجزة المستقبلية الذي هو في الواقع ظهور لمعجزة عيسى عليه السلام في أمّه، بل بالنسبة لإرتباط مريم وعيسى عليهما السلام، فقد ورد كلام في عدّة موارد من القرآن الكريم. في بيان القرآن الكريم أن عيسى ومريم عليهما السلام في الحقيقة واقعية واحدة ظهرت بصورة أم وابن إذ أنه عدا عن أنه قد عبر عن هذين الإثنين بعنوان آية واحدة، فتارة إسم مريم مقدم على إسم عيسى مثل قوله تعالى: (وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) سورة الأنبياء: ٩١، وتارة بالعكس (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً) سورة المؤمنون: ٥٠.

والشاهد الثالث هو تمثل روح الله لمريم سلام الله عليها أثناء صيرورتها أمّاً، يقول القرآن الكريم في هذا المجال: (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا* قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا) سورة مريم: ١٧-٢١. عندما أراد الله عز وجل أن تصبح مريم أمّاً أرسل لها روح الله، وتمثل ذلك الملاك لمريم سلام الله عليها بصورة إنسان مستوي الخلقة، عندما لاقت مريم ذلك الملاك في نشأة المثال لأول مرة قالت: أعوذ بالله منك. عندها بشرها الملاك المتمثل بالولد ومريم ولكونها إمرأة من دون زوج تعجبت من صيرورتها أمّاً فقال ذلك الملاك: إن إرادة الله قد تعلقت في أن تصير أمّاً دونما إتصال بزوج.[1]

---

(١) ولاية الإنسان في القرآن، مصدر سابق: ص٢٣٠ وما بعدها.

# تفرد لا تسيد

إذن ما دام لمريم عليها السلام مقامات عالية كمقام الحجية، وعندها الولاية التكوينية، بحيث لا يدانيها على ذلك إلّا افراد قلائل منتجبين، وهي بالتأكيد كذلك، فما الداعي بعد الى أن نصرّ على أن تكون نبيّة، فهذا الأمر لن يزيدها علوّاً، فإن لمقام النبوّة أعمال وتكاليف، ولمقامها التي وصلت إليه أعمال وتكاليف. فإذا الفرد أنيط به القيام بأمر ما، وكان هو الفرد المناسب للقيام به، خصوصاً بمثل أشخاص كُمَّل كمريم عليها السلام فستكون بكل تأكيد راضية وسعيدة بالقيام بذلك الأمر، من دون النظر الى أعمال وتكاليف الآخرين، لأن أمثال أولئك العباد أو العابدات لا يهمهم من وجودهم إلّا الرضا الإلهي، فإذا تحصل الرضا بتنفيذ الأعمال المكلفين بها،فهذا هو المنى، ولن يتمنوا مقامات لم يرزقهم الله بها، لأنهم يعلمون بأن الله يختار ما يشاء، وهو يعلم حيث يجعل رسالته.

ثم إذا فرضنا أن الرجال قد تكفلت أمر النبوّة وقامت به على أكمل وجه، فما الداعي الى إدخال المرأة في هذا المقام وتكليفها بمهام النبوّة، إذا كان أمرها قد كمل بالرجال ولم يحتاج الى إتمام من قبل المرأة.

وحينئذ سيكون أمر تكليف المرأة بالنبوّة زائداً وفائضاً عن الحاجة، وهذا الأمر محال عند الله تعالى، لأنه تعالى لا يفعل الأمور الفوضوية والعبثية وإنّما خلق كل شيء بقدر وميزان، واعطى لكل شيء حسب إستعداده (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) سورة القمر: ٤٩، فمريم عليها السلام قد تفردت بشيء لا يمكن لأي رجل أن يقوم به وهذه ميزة لمريم عليها السلام، لماذا غفل عنها من يريد أن يذهب الى القول بنبوّتها، مع العلم أن ميزة التفرد هذه من أهم خصائص السيدة مريم، كونها قد كلفت بمهمة لا يستطيع أن يؤديها حتى الأنبياء. وفي ذلك الكفاية لمقام السيدة العذراء.

ومثلها في مقام التفرد أم موسى عليها السلام في تأدية دور

حماية النبي موسى عليه السلام، بعد أن ربط الله على قلبها، وألقت موسى في اليم، وكذلك دور هاجر زوجة ابراهيم عليه السلام، وقيامها بالحفاظ على زرع نبوّة إسماعيل في مكة، بإعتبار أنها تلقت أمر البقاء في الوادي غير ذي زرع من إبراهيم عليه السلام، وبما أن إبراهيم كان نبياً، فيكون أمره من أمر الله تعالى، فيتحقق أمر بقائها بتكليف من الله عن طريق إبراهيم عليه السلام، ولذلك سيكون الوحي قد أتاهن ثلاثتهن- مريم وأم موسى وهاجر عليهن السلام- فهل يمكننا القول عنهن بأنهن نبيات. وإنّما كل واحدة منهن قد كلّفت بدور لا يمكن الحفاظ على النبوّة إلّا من خلالهن كونهن حملن من الصفات والمؤهلات ما صعد بهن الى أن يختارهن الله تعالى لتلك المهمة.

إذن يمكن لنا أن نصل الى أمر مهم، وهو أن بين الرجل والمرأة في بعض الحالات مقام يمكن أن نطلق عليه (مقام التفرد لا التسيد) وهو أن يكون هناك أعمال وأدوار لا يمكن أن يؤديها الرجل، وهي تختص بالمرأة فقط، وهي لا

تستدعي بالتالي لتفردها بتلك الأعمال أو الأدوار لتتسيد على الرجل، ولا يمكن أن يكون لها عصر يسمى عصر الإمومة، أو وجود في مرحلة من مراحل التاريخ المجتمع الأمومي، فهذا وهم وقع فيه من وقع عن قصد وعمد أو عن غفلة وعدم التحقق الموضوعي الكامل، فاضطر الى أن يتكلف ليضع في منهجه ذلك التصور في حالة التفرد، ويجعلها حالة من التسيد، ويقول بأن هناك في المراحل الأولى من بدء البشرية كانت المرأة هي السيدة وهي صاحبة القرار، لأن هناك أدوار رئيسية كانت تقوم بها. فلم يستطع أن يفلسف تلك المرحلة، بأنّها حالة من حالات التفرد التي امتازت بها المرأة عن الرجل، وهذا التفرد لا يخرج بحال عن طبيعة المرأة ودورها في الأسرة والمجتمع الذي هيأته لها بنيتها البيولوجية وتركيبها الجسدي.

وفي الطرف الآخر للرجال أيضـاً تفرد في تأدية بعض الأمور لا يمكن أن تؤديها المرأة، وهذا لا يستدعي بدوره أن يتسيد الرجل عليها بالقهر والقوّة. وإنّما الذي جعل هذا

التفرد هو أيضاً تكوينه البيولوجي والنفسي وتركيبه الجسدي، ولذلك أيضاً لا يمكن لنا أن نطرح مجتمعاً من المجتمعات التي مرّت بها البشرية ونطلق عليه المجتمع الأبوي أو البطريركي، ونحاول أن نؤطر تلك المرحلة من التاريخ بهذا الأطار الذكوري الخالص، لنعطي فكرة بأن هذا المجتمع قد يكون طارئاً، ومن الممكن أن يأتي دور من أدوار التاريخ لتتبدل الصورة بإطار آخر، قد تفرضه المرحلة أو الطبيعة أو البشرية نفسها فيتحول الى مجتمع أنثوي مرة أخرى.

فالأمر ليس بهذه الصورة من التبدل والتحول، ولا هو حالة من حالات الصيرورة لتعطينا تحولات وعناوين تتلبس بها كل مرحلة من مراحل القيادة في التاريخ، وإنّما هناك حالة من النمط الإجتماعي إمتاز فيها الرجل عن المرأة في تسيير أمور المجتمع، وهي ليست حالة طارئة ولا هي حالة من حالات التنميط الإجتماعي والتربية المقصودة، وإنّما كل تلك الأمور تقع ضمن قابليات ومؤهلات كل من الرجل

والمرأة.

فهذا الذي نقصده من حالات التفرد، فكما أن المرأة تفردت بأن تكون هي صاحبة الرحم الذي يتربى به الطفل، وهي التي تفردت بالرضاعة، وهي التي تفردت بالأنوثة والرقة والعاطفة وغيرها من الامور الخاصة بشأنها، فهذه الأشياء لا يمكن للرجل أن يقوم بها بحال أو أن يتلبس بها في لحظة من اللحظات، كذلك الرجل قدتفرد بأمور كثيرة لا يمكن للمرأة أن تشاركه فيها كالقوة والصلابة وتحمّل الصعاب والقتال، وما يوفره من حماية لأسرته. فكذلك النبوّة حالها حال الأمور التي تفرد بها الرجل دون المرأة، ومثل هذا التفرد هو ما حصل لمريم عليها السلام، إذ تفردت بأن يؤتى منها رسول من دون أن يقربها رجل، فهذا الدور لم ولن يستطع أي رجل أن يؤديه.

وبذلك نصل الى إيجاد نظرية (التفرد لا التسيد) التي تقول: (انّ كلّاً من المرأة والرجل قد إمتاز بادوار يتفرد بها

أحدهم دون الآخر، لا على نحو تؤهله لأن يتسيد، وإنّما من أجل التوافق وإيجاد المجتمع السعيد). أي أن المرأة والرجل إن حصلت لهما مميزاتِ وأدوار تختلف فيما بينهما، هذا لا يعني التسيد والسيطرة من قبل أحدهما على الآخر، بل أن كلًّا منهما قد تفرد ببعض الأدوار، وهذا مما تفرضه الطبيعة وتكوينهما البيولوجي. وهذا التفرد والتخصص هو الذي يتحقق من خلاله التكامل والهدف المرجو من وجود كل من الرجل والمرأة، لا أن يبحث كل منهما عن تبادل الأدوار، ظناً منهما أن ذلك من باب التساوي والتشابه، فالأمر ليس كذلك، ولكن السعادة لا تتحقق إلّا بعد إتقان مبدأ التخصص والتفرد وتطبيقه على أرض الواقع.

إذن بعد هذا لا داعي الى أن نذهب الى البحث، هل أن مسألة نبوّة مريم عليها السلام من عدمها مرتبطة بالمفسر أو برؤيته القرآنية، أو هل هي نتاج ثقافي قائم على النسبي الذي يرتبط بالزمان والمكان، ضمن شروط تاريخية ومن ثم تلتحق الظروف الذاتية للمفسر، لتقرأ في كل عصر ضمن

قراءة وتأويل يختلف عن السابق.

وكذلك فإن مسألة نبوّة مريم عليها السلام لا يمكن إعتبارها إنها قد ولدت نتيجة تساؤلات قائمة على أنها ضمن كرامة الأولياء أو معاجز الأنبياء، فالأمر لا يتعلق بهذه الصورة النمطية البسيطة، فهو أعمق من ذلك، وله دلالات سياقية تظهر من نفس مفردات القرآن الكريم التي تعرضت لمريم عليها السلام وعذريتها وما قدّمته من ولادة إستثنائية، فعلينا البحث عن تلك الدلالات الهامة في تشكيل ثنائية الذكر والأنثى، ودور كل منهما حسب مقتضيات الإحتياج الإنساني للبقاء والتمركز نحو أصل الهداية ومنبعها الذي يظهر ويتجلى حسب الظروف الإجتماعية ومفرداتها القاهرة التي تحاول أن تزيح وتبعد آثار النبوّة عن البشرية وإحتياجاتها للتكامل وتحقيق أهدافها التي وجدت من أجلها.

وعندها سيتضح جليّاً إن مفردة مقام مريم عليها السلام الذي أراد الله تعالى بيانه في كتابه الكريم، ما هو إلّا بيان لدور

مهم ومكانة عظيمة قد وصلت اليها المرأة، لا يمكن للرجال الدنو منها. وهو بذلك لوحده كرامة ومنزلة لا تحتاج بعدها مريم عليها السلام لأن نطلق عليها نبيّة او هل هي نبيّة فعلاً أو لا. وذلك لأننا يجب أن ننظر الى الفعل الذي قامت به وعلى أكمل وجه، فهل هو لا يؤتى إلّا إن كانت نبيّة أم لا يمكن أن يؤتى بلا عنوان النبوّة؟ فإذا كان يتحقق بلا عنوان النبوّة، فلِمَ هذا البحث الذي لا يقوّم لنا شيئاً يحرك فيها الإمتياز، ومن ثم البحث عن دواعي النبوّة فيها. وحينئذ سنتكلف كثيراً دون أن نجد شيئاً من تلك الدواعي في مريم عليها السلام.

فإذا كان الأمر كذلك، فإن إقصاء مريم عليها السلام من النبوّة هو ليس إقصاء للنساء من السلطة الدينية، كما يذهب البعض الى ذلك، فإننا لا نتكلم عن أية سلطة دينية هنا، والدليل إنّ مريم عليها السلام نفسها لم تمارس أية سلطة دينية، ولم يطلب منها أن تمارس ذلك في حياتها. فكيف نريد أن نستدل بنبوّة السيدة مريم على إثبات السلطة الدينية للنساء، فإن للنساء شأن آخر قد يوازي بأهميته تلك السلطة،

إن لم يكن في بعض الأحيان هو المولد والموجد لصاحب هذه السلطة، بأسباب وظروف خاصة. ولذلك علينا أن لا نتّهم من يذهب الى القول بعدم نبوّة مريم الى أنّه اعتمد على حكم نابع من أعراف الإسلام الكلاسيكي البعيد عن قابلية الإسلام المعاصر الذي يتماشى مع كل متغير وبإستمرار لا يعرف التوقف.

ثم نحن لسنا بحاجة الى أن نبحث من أجل إثبات تلك النبوّة عن التماثل والتجانس بين حال النبي ودراما قصة مريم عليها السلام، كما ذهبت صاحبة كتاب (السيدة مريم في القرآن الكريم) معتمدة على الدراسة التي قدّمها عدنان المقراني في كتابه (تأملات مريمية) الى أن هناك تجانس بين عذرية مريم وأميّة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا بالتالي يستدعي نبوّة مريم عليها السلام، فهي حملت بكلمة من الله بغلام دون أن يمسسها بشر ومحمد صلى الله عليه وسلم ضمن كلام الله وتلقى البشارة بالقرآن دون معرفة بالقراءة والكتابة. ولقد كانت مريم يتيمة كفلها زكريا، وكذلك محمد

يتيماً كفله جده عبد المطلب، ويقابل تعبد مريم بالمحراب تحنث محمد صلى الله عليه وسلم في غار حرّاء، فكلاهما تحضير روحي لتلقي البشارة بالكلمة وحملها وتحملها. مضافاً الى إنّ المبشر بالكلمة في كلتا الحالتين هو روح القدس، الملك جبريل الذي يظهر بشكل رجل.[1]

فالحقيقة أن التجانس والتماثل إن وجد بين شيئين فهذا لا يدل على الإتحاد في الحكم فيما بينهما، لأن مجرد التشابه لا يدل على وجود كل الصفات التي يحملها الفرد الأول عند الفرد الثاني، ولا العكس أيضاً. مضافاً الى أن الأحكام لا تصدر على مجرد التماثل والتجانس بين الشيئين، إذ في الغالب اذا ما وجد شيئان وإن كانا قد تشابها في بعض مفردات البنى الوظيفية لكل منهما، لكنهما من ناحية الأحكام الخاصة بهما يختلفان، وهذا من المفروض أن يكون من البديهيات في عالم الفلسفة والعقائد والفقه وحتى من الناحية الطبيعية، فإن

(١) ينظر: السيدة مريم في القرآن الكريم: حُسْن عبود، نشر دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠١٠م: ص٢٤١.

الأحكام لا تصدر على الأشياء لمجرد التشابه والتماثل فيما بينها، ولعل كثير من الناس وقعوا في مثل هذه الأخطاء، نتيجة هذا القياس السطحي البسيط. فمثل هكذا مقاربات وتشابه يكون لها محلاً ومقاماً في الدراسات والقراءات الأدبية، فهي تعطي مجالاً للأديب بأن يدع لقريحته ووجدانياته الصورية والخيالية، بأن تحلق بعيداً في أفق الإنسانية، وكيفية أن مفرداتها الصالحة، سواء كانت من الأنبياء أو الأولياء، أنها تلتقي بكثير من المواقف وتتحدد في تحركاتها وأقوالها، كيف والله القائل (لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) لتشكل بالتالي صورة أدبية رائعة، لا يمكن للوجدان ولا الخيال ولا الواقع الإحاطة بها، مالم يخرج الفرد من دائرة ذاته الضيقة محلقاً في معراج التخلي عن متعلقات وزوائد هذا الوجود الدنيوي، ليمكن بصيرته من أن ترى الصورة الحقيقية من مفردات التشابه والتماثل بين الأولياء والأنبياء.

# دور المرأة في الحفاظ على الإمامة

من أهم الأمور من أجل إنصاف الآخرين هو أن تضع كل فرد في مقامه وإستحقاقه، وفي حالة الزيادة أو النقيصة يكون هناك ظلم وتعدي وإن لم يشعر بهما الفرد. ولكن قد يظهر ذلك في مواقف معينة واضحاً جليّاً للعيان.

والذين يبحثون أو يطالبون ولو بالتنظير الفكري الى إعطاء أدوار قد ابتعدت أو حجبت عن المرأة خلال المسير الطويل للتاريخ البشري، فهم بالتالي يحمّلون الظرف الإجتماعي والمحيط الخارجي بالعمل على وأد أي فعالية تظهر البعد الحركي للمرأة في كثير من المجالات، معتبرين العادات والأعراف والضغوط الإجتماعية، مضافاً الى التحكم الديني، بتلك الحريات، جزء مباشر في منع المرأة عن استحقاقها الوظيفي المتنوع في هذه الدنيا.

ولكن في الحقيقة هم بتلك الدعاوى والاصوات يظلمون المرأة، حين يضعونها في قبال الرجل، وكأن الأمر

محكوم ومنوط بتحدّيها للرجل، والعمل بكل وسعها من أجل إثبات مقدرتها على هذا التحدي.

والأمر إذا أخذ يسير بهذا الإتجاه فستكون الأمور ذات عواقب وخيمة ولا يحمد عقباها، لان الصراع غير متكافئ أولاً، وثانياً ترك التكاليف والأعمال المنوطة بالمرأة، لا على وجه التحدي، وإنّما الأعمال التي يفرضها السياق العام والتي حددتها طبيعة الجسد الانثوي، وما يحمله من قابليات تريد عملاً إنسيابياً لها يقرّه الإحتياج في عالم الخارج، وتقرّه الروح داخل الجسد، بما تحمله من مشاعر وعواطف وجمالية، لا يمكن أن توجد إلّا عند المرأة.

وهذه الميزات من المفروض هي التي تحركها، ومن ثم عليها الإبداع فيها لأنها هي التي تخلق الجمال والطيب والشعور بالمسؤولية الكاملة التي اوكلت إليها.

وجميع من يدّعون أو يطالبون بالمساواة الكاملة في مسألة الأدوار وتبادلها بين الرجل والمرأة، ومنها الإقرار لها

بإستحقاق النبوة بإعتبار ليّ عنق النص الديني وجعله موافقاً لما ذهبوا إليه، يريدون بالتالي أن يبعدوها عن دورها الطبيعي في هذا الوجود، وبدلاً من أن تبدع فيه، وتربط كل إمكانياتها به، شغلوها بأمور خارجية وغريبة هي ليست من صلب طبيعتها. ليجعلوها تتجاوز دائرة حدودها المودع فيها اللطافة والهدوء والحنان والدفء الأسري لتقفز الى دائرة الصلابة والشدّة التي قد أعدّت لغيرها، وبالتالي أقحمت في أمور ليس لها في يوم أن تحل، لأنها في عالم التكوين قد خُطّت لغيرها.

وعلى هذا الأساس عليها أن تتمسك بالمسموح لها وخصوصاً بالأمور التي يحددها الدين وذلك لأن شرعه صادر من رؤية واقعية تصدر من قبل الخالق والمبدع للإنسان. وحينئذ ستخرج أعمال المرأة التي تساير وتتماشى مع خط طبيعتها بنتائج باهرة وفريدة، إن لم يكن بعضها مصيري وحاسم فيما إذا تحرك متوازياً مع خط الإصلاح العام.

وفي بعض الأحيان تكون تلك الأدوار الإصلاحية منحصرة بالمرأة بشكل كامل، ولا يمكن لأي رجل أن يؤدي تلك الأدوار، وكما ذكرنا سابقاً دور المرأة في الحفاظ على النبوة، عندما تكلمنا عن هاجر وحفاظها على النبي إسماعيل عليه السلام في تلك الصحراء المجدبة، ودور أم موسى وأخته وزوجة فرعون في الحفاظ على حياة النبي موسى عليه السلام، وكيف أن مريم البتول تفردت بتلك الدلالة الإعجازية وإحاطتها بالنبي عيسى عليه السلام.

وهنا نتساءل هل أنّ للمرأة دور تفردي في الحفاظ على رجال الإمامة، كما حافظت على رجال النبوة بحيث لا يمكن للرجل أن يأتي بمثله، ولو سعوا ما سعوا لأجله؟.

والجواب سيكون بالإيجاب، فكما كان لها دور مع النبوة، فهي لها هذا الدور مع الإمامة، والحفاظ عليها من أعدائها، وذلك لأن علاقة الرجل بالمرأة وهما يسيران معاً في هذه الدنيا من أجل هدف إصلاحي واحد، لابد من أن

تكون علاقة متبادلة تنبع من تنسيق مسبق يعرف كل منهما تكليفه من خلاله.

ومن أوضح هذه الأدوار التفردية التي حفظت الإمامة بها هو ما قامت به فاطمة الزهراء عليها السلام وهي تقارع القوم بحجتها، التي دافعت بها عن الإمام علي عليه السلام، وخير دليل على ذلك عندما جعلت الركن الثاني الذي يتكئ عليه الإمام أمير المؤمنين بعد ركنية الرسول محمد صلى الله عليه وآله، فعن جابر قال: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي بن ابي طالب عليه السلام: سلام عليك يا أبا الريحانتين، أوصيك بريحانتي من الدنيا خيراً، فعن قليل ينهد ركناك، والله خليفتي عليك. قال: فلما قبض النبي صلى الله عليه وآله قال علي عليه السلام: (هذا أحد الركنين اللذين قال النبي صلى الله عليه وآله، فلما ماتت فاطمة عليها السلام، قال علي عليه السلام: هذا الركن الآخر الذي قال

النبي صلى الله عليه وآله).[1]

وهذا المقام -أي مقام الركنية- الذي استحقته فاطمة الزهراء عليها السلام، كان يفرض عليها أن تعين أمير المؤمنين متى ما احتاج الإتكاء والإتكال عليها في الظروف الصعبة والطارئة، ولا اعتقد بأن هناك ظرف طارئ وبالغ الصعوبة، كالظرف الذي أحاط بالإمام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، وتآمر القوم على إستلاب الخلافة منه. ومادامت هي سلام الله عليها قد قبلت مقام الركنية، فلابد أن تؤدي ما يفرضه موقف الإعتماد على الركن، وهي توفر طرق الحماية اللازمة لمواجهة أي خطر يحيط بالإمامة، وتأدية الدور المناسب لتلك الظروف المحيطة بالشخص المعني، وبالتالي تخفيف أثر الصدمات والعقبات التي ستواجه أمير المؤمنين. وما دامت هي عالمة بأن خطر الإضطرار هو الذي

---

(١) فضائل الخمسة من الصحاح الستة: السيد مرتضى الحسيني الفيروز آبادي، تحقيق المجمع العالمي لأهل البيت، بيروت، ط٢، ١٤٢٨هـ.

ألجأ الإمام الى أن تؤدي الدور محلّه في تلك الساعات الحرجة.

فهي سلام الله عليها عندما خرجت وخطبت في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، كانت مدركة للظرف والمحنة بكل أبعادها وجذورها. فهناك بدع وإجتهادات لم يعهد لها في شريعة الإسلام، قد أدركتها، فأسرعت لتحذر المسلمين من خطورة الموقف، وإنحراف السنّة وإنتهاك حرمتها، فلقد رأت كيف أن قريشاً تسعى الى أن تجعل الخلافة حكراً عليها، أو تحت وصاية رجال قد أبرموا هذا الأمر إبراماً، ومن قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وآله بعدّة سنوات.

فكانت هي الوحيدة القادرة على الدفاع عن علي عليه السلام، فأظهرت ما أظهرت من الحجج خلال كلامها التي واجهت به القوم، فها هي تخاطبهم وتقول:

(...وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطئ الاقدام، تشربون الطرق

وتقتاتون الورق، أذلّة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم، فأنقذكم الله بمحمد صلى الله عليه وآله بعد اللتيا والتي، وبعد أن مني ببهم الرجال وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب (كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ) أو نجم قرن للشيطان وفغرت فاغرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها، فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بأخمصه، ويخمد لهبها بسيفه، مكدوداً في ذات الله، مجتهداً في أمر الله، قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله، مشمراً ناصحاً، مجدّاً، كادحاً، وأنتم في رفاهية من العيش وادعون، فاكهون آمنون، تتربصون بنا الدوائر، وتتوكفون الأخبار، وتنكصون عند النزال، وتفرون من القتال، فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه، ومأوى أصفيائه، ظهر فيكم حسيكة النفاق، وأسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ خامل الآفلين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، واطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللغرّة فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفافاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً،

فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غير مشربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لمّا يندمل، والرسول لمّا يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة (أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) فهيهات منكم وكيف بكم وأنّى تؤفكون ...).[1]

ثم أنظر الى قولها في جمع من نساء الأنصار والمهاجرين، حين جئن لعيادتها في مرضها حيث قالت لهن: (ويحهم أنّى زحزحوها عن رواسي الرسالة، وقواعد النبوة والدلالة، ومهبط الروح الأمين، والطبين بأمور الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين، وما الذي نقموا من أبي الحسن، نقموا منه والله نكير سيفه، وقلّة مبالاته لحتفه، وشدّة وطأته، ونكال وقعته، وتنمره في ذات الله. وتالله لو مالوا عن الحجة اللائمة وزالوا عن قبول الحجة الواضحة لردّهم إليها،

---

(١) اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء: المولى محمد ابن أحمد القراجه داغي التبريزي الأنصاري(ت ١٣١٠هـ)، تحقيق السيد هاشم الميلاني، قم، ط١، ١٤٢٤هـ: ص٦٠٧ وما بعدها.

وحملهم عليها، ولسار بهم سيراً سجماً لا يكلم مشاشه، ولا يكل سائره، ولا يمل راكبه، ولأوردهم منهلاً نميراً، صافياً رويّاً تطفح ضفتاه، ولا يترنق جانباه ولأصدرهم بطاناً، ونصح لهم سرّاً وإعلاناً، ولم يكن يتحلى من الدنيا بطائل، ولا يحظى منها بنائل، غير ري الناهل، وشبعة الكافل، ولبان لهم الزاهد من الراغب، والصادق من الكاذب).[1]

والحقيقة عندما كان المسجد في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله هو المكان الذي يستقبل الضعفاء والمظلومين، حتى تقضى به حوائجهم، وكذلك للمطالبة بحقوقهم أو الشكوى على من ظلمهم، أو لمعرفة التحركات والأخبار السياسية الخاصة بالأمة الإسلامية، أو لمعرفة ما يصلح أمورهم العبادية والمعنوية، أرادت الزهراء عليها السلام أن تجعل من ذلك المكان خطوة لبث دعواها، ولبيان استحقاق أمير المؤمنين للخلافة، لأنها الركن الذي أوكل إليه الإمام

(١) كلمة فاطمة الزهراء: السيد حسن الشيرازي، نشر دار العلوم، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م: ص٢٣٩.

تأدية المهمة بدلاً عنه.

ودليل ذلك بعد استشهاد فاطمة الزهراء فقد علي عليه السلام أهم ناصر له، حتى أننا نستطيع القول بأن مسألة الخلافة واستحقاق أمير المؤمنين لها، قد طويت ولم تثار بعد استشهادها عليها السلام، بالرغم من خطورة أمر ضياعها عن مستحقها، بحيث وصل الأمر الى قبول الوضع الذي وصل إليه المجتمع المسلم، وكأنّه أمر مسلّم، ولم يعترض بعدها أي معترض به، ولم نجد فيما نطالعه من التاريخ معارضة فعّالة وقوية يمتد صداها الى جيلنا الحاضر، بمثل معارضة واستنكار الزهراء عليها السلام.[1]

ولذلك فإننا نرى في موقف فاطمة عليها السلام هذا تفرداً، قل نظيره، إن لم يعدم، وهي تحامي وتذود عن الإمامة، وهي تلك المرأة التي تسيدت نساء العالمين

---

(١) للزيادة في بحث هذا الموضوع راجع كتابنا (دفاع عن فاطمة الزهراء) ص٢٥٩ وما بعدها.

بإستحقاق كامل، لتري وتكشف حركة المرأة الممكنة في ظروف خاصة لتظهر ملكاتها من دور الكمون الى القوّة في لحظة الإحتياج والتصدي لرفع الظلم عن جهة الحق، ولذلك خُلّدت مثل تلك المواقف، ولا يمكن لها أن تنسى، ولعمري لو كانت كل النساء تحذو حذو الزهراء عليها السلام وتنشغل فيما يصلح من شأنها، ويبرز من قوتها كتلك القوى والإمكانات التي ظهرت من خلال الزهراء، بحيث وقفت بصلابة يعجز الرجال البواسل عن الإتيان بمثلها، لكان للنساء مكاناً خاصاً يغبطهن عليه الأولون والآخرون، ولما انشغلت في البحث والجري وراء هتافات ودعوات ليس لها غرض إلّا التقليل من شأنها ودورها المصيري والرسالي في هذه الدنيا.

فأين دعاة التساوي والتشابه من تلك الوقفة الثابتة الأبية لامرأة لبست درع المواجهة وتحدي الظالمين في موقف قلّ الناصر فيه.

وأين دعوات التحرر من تلك الدعوة الرافضة للعبودية والإستكانة لسوط الظالم، فها هو الصوت الفاطمي الذي هز الجموع الحاضرة فأسكت الجميع وأخرسهم وكأن على رؤوسهم الطير.

وأين دعاة المواقف والقيادة النسوية من تلك الوقفة الفاطمية، وقيادتها لتجمع كل الحاضرين فيه رجال، ولكن الزهراء تسيدت عليهم، وهي تهتف بإمامة علي عليه السلام.

فلماذا لا يثقفون النساء على مثل هكذا مواقف ومبادئ وتحديات، ولماذا يصّرون على إبعاد النساء عن كل ما يخلدهن في التاريخ، لكي يفتخرن به ويسعين إليه جاهدات مجدات، ويتركن استماع الدعوات التي تقلل من شأنهن ومكانتهن الإنسانية.

ولماذا يصّرون على أن المجتمعات والشرائع قد حرمت المرأة من كثير من إستحقاقها. بينما في الواقع تجد فرص الإبداع والتألق وعنصر الدفاع عن الحق موجود حاضر بين

يديها تقدمه أخلاقيات وتعاليم الدين الحنيف. لكنهن ثقفن على العكس من ذلك، فبدل من التحرك لنصرة الحق، أخذن يبحثن عن الشهرة الزائفة والتي في كثير من الأحيان تظهرها كبضاعة تتمتع بها عيون الناظرين، أو يتحركن لمزاحمة الرجل في أدواره التي يتفرد بها دونها. ولذلك في مثل هكذا مواقف سوف تفقد المرأة مكانتها، وستقلل من قيمتها بإعتبارها قد تركت ما كان عليها القيام به، وأخذت تسعى للقيام بما هو غير مطلوب منها، وبالتالي حتى وإن بدا لها النجاح، فإنه نجاح موهوم ومزعوم وسينتهي لا محال.

ومثل حال فاطمة الزهراء عليها السلام في مواقف النساء وهي تدافع عن الإمامة، زينب عليها السلام فهي التي صدحت بصوت الحق مع أخيها الإمام الحسين عليه السلام، وهي التي حفظت لواقعة كربلاء قيمتها المعنوية، وهي التي حمت وحافظت على بنات الرسالة، وهي التي قاومت حتى ألقت بنفسها على إمام عصرها علي بن الحسين عليهما السلام، عندما أرادوا قتله وهو مكبل بالسلاسل والقيود، أو

ليست هي القائلة سلام الله عليها:

(أما بعد يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر!! أتبكون؟ فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنّة .إنّما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثا، تتّخذون أيمانكم دخلاً بينكم. ألا وهل فيكم إلّا الصلف النطف؟ والصدر الشّنف؟ وملق الإماء؟ وغمز الأعداء؟ أو كمرعى على دمنة؟ أو كفضة على ملحودة؟ ألا ساء ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم، وفي العذاب أنتم خالدون.

أتبكون؟ وتنتحبون؟ إي والله، فأبكوا كثيراً واضحكوا قليلاً. فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً...).[١]

ثم انظر الى خطبتها في مجلس الطاغية يزيد بعد أن تمثل

---

(١) زينب الكبرى من المهد الى اللحد: السيد محمد كاظم القزويني، تحقيق السيد مصطفى القزويني، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م: ص٢٦١.

بأبيات ابن الزبعرى:

ليت أشياخي ببدر شهدوا  جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلوا واستهلوا فرحاً  ثم قالوا يا يزيد لا تشل

قد قتلنا القرم من ساداتهم  وعدلناه ببدر فاعتدل

لعبت هاشم بالملك فلا  خبر جاء ولا وحي نزل

لست من خندف إن لم أنتقم  من بني أحمد ما كان فعل

فقالت عليها السلام:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين، صدق الله سبحانه حيث يقول: (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ) أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض، وآفاق السماء، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك، جذلان مسروراً، حين

رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور متسقة، وحين صفى لك ملكنا وسلطاننا، فمهلاً مهلاً، أنسيت قول الله تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ).

أمن العدل يا ابن الطلقاء، تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله سبايا، قد هتكت ستورهن، وأبديت وجوههن، تحدوا بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهن أهل المناهل والمعاقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد، والدني والشريف، ليس معهن من حماتهن حمي ولا من رجالهن ولي، وكيف يرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأزكياء، ونبت لحمه من دماء الشهداء، وكيف يستبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنق والشنآن، والإحن والأضغان، ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم:

لأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل

منحنياً على ثنايا أبي عبد الله سيد شباب أهل الجنة تنكتها بمخصرتك وكيف لا تقول ذلك، وقد نكأت القرحة واستأصلت الشأفة، بإراقتك دماء ذرية محمد صلى الله عليه وآله ونجوم الأرض من آل عبد المطلب، وتهتف بأشياخك، زعمت إنك تناديهم فلتردن وشيكاً موردهم، ولتودَّن أنك شُلِلْتَ وبَكُمْتَ ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت.

اللهم خذ لنا بحقنا، وانتقم ممن ظلمنا، وأحلل غضبك بمن سفك دماءنا، وقتل حماتنا.

فوالله ما فَرَيْتَ إلّا جلدك، ولا حَزَزْتَ إلّا لحمك، ولتردنَّ على رسول الله صلى الله عليه وآله بما تحملت من سفك دماء ذريته وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم، ويلم شعثهم، ويأخذ بحقهم (وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ).

وحسبك بالله حاكماً، وبمحمد صلى الله عليه وآله

خصماً، وبجبرائيل ظهيراً، وسيعلم من سوَّل لك ومكنك من رقاب المسلمين بئس للظالمين بدلاً وأيكم شرّ مكاناً، وأضعف جندا.

ولئن جرَّتْ عليّ الدواهي مخاطبتك، إني لأستصغر قدرك وأستعظم تقريعك، وأستكثر توبيخك، لكن العيون عبرى والصدور حرَّى.

ألا فالعجب كل العجب، لقتل حزب الله النجباء، بحزب الشيطان الطلقاء، فهذه الأيدي تنطف من دمائنا، والأفواه تتحلب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل، وتعفرها أمهات الفراعل، ولئن اتخذتنا مغنماً، لتجدنا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلّا ما قَدَّمَتْ يداك وما ربك بِظَلامٍ لِلْعَبِيد، وإلى الله المشتكى وعليه المعول.

فكد كيدك، واسع سعيك، وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا يرحض عنك عارها، وهل رأيك إلّا فَنَد وأيامك إلّا عدد، وجمعك إلّا بَدَد، يوم

ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين).[1]

فها هي البطولات والمآثر تخرج من بيت الرسالة لتكون خير مثال على أن الدين الإسلامي هو خير مربي للمرأة، لأن تكون شاعرة بمسؤوليتها وأدوارها الإصلاحية في المجتمع.

فليت الذين يدّعون بأن الإسلام قد ظلم المرأة يبرزوا مثل هذه الجوانب المضيئة التي ستبقى على مر الدهور تحدياً للذين يريدون مقامات عالية للمرأة من غير طرق الحق التي بيّنها الدين، فليأتوا بمثل تلك المقامات الشامخة التي أدتها فاطمة الزهراء أو زينب عليهما السلام اللتان تربتا بحضن الإسلام، حتى أثمر ذلك العطاء لتصبحا خير مدرسة للأجيال بنسائها ورجالها ليحذون حذوهما.

فهل تستطيع أية مدرسة غير المدرسة الإسلامية من تقديم نموذجاً واحداً يقترب من تلك المواقف أو يشابهها؟.

---

(١) مقتل الحسين: العلّامة السيد عبد الرزاق المقرم، نشر مؤسسة الخرسان، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٧م: ص٣٧٩.

وبعد أن بيّنا تلك الجهوزية التامة للمرأة الكاملة، بأن تقوم بتأدية تلك الأدوار المصيرية في عالم النبوة والإمامة، بل وتنحصر بهن لكي يتفردن بها دون الرجال. بإعتبار وجود الموانع الخلقية أو الطارئة التي تتحكم بإيجاد ظروف الإضطرار، وبالتالي يتم الحفاظ على النبوة وإستمرار الإمامة من خلال تأدية تلك الأدوار الكبرى في التاريخ.

فهل تبقى بعد ذلك الحاجة الى أن يبعث الله امرأة نبية أو رسولة، وهي مذخورة لتأدية مثل تلك الأدوار الملازمة للنبوة والإمامة؟.

# المصادر والمراجع

١ - **القرآن الكريم.**

٢- **الأساطير والأحلام والأسرار**: ميرسيا إلياد، ترجمة حسيب كاسوحة، نشر وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، ط١، ٢٠٠٤م.

٣- **الإنجيل برواية القرآن**: فراس السواح، نشر دار التكوين، دمشق، ط٣، ٢٠١٧م.

٤- **الأصول الوثنية للمسيحية**: إدغار ويند وآخرون، ترجمة سميرة عزمي الزين، نشر المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٥- **الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل**: الفقيه المفسر الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٦- **التحقيق في كلمات القرآن الكريم**: المحقق المفسر العلّامة المصطفوي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٩م.

٧- **التفسير الكاشف**: محمد جواد مغنية، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م.

٨- **تاريخ النساء الفلاسفة**: إشراف ماري إيلين ويث، ترجمة د. محمد مراد، نشر دار الوفاء، الاسكندرية، ط١ .

٩- **تفسير التحرير والتنوير (المعروف بتفسير ابن عاشور)**: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، بدون سنة طبع.

١٠- **الجامع لأحكام القرآن**: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

١١- **الحكاية الخرافية**: فردريش فون ديرلاين، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، نشر دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٧٣م.

١٢- **دروس في العقيدة الإسلامية**: محمد تقي مصباح اليزدي، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١.

١٣- **دفاع عن فاطمة الزهراء**: علي الزيدي، نشر دار جيكور، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٦م.

١٤- **زينب عليها السلام سرّ من أسرار أهل الكساء**: تقرير لمحاضرات آية الله المحقق الشيخ محمد السند، بقلم ابراهيم حسين البغدادي، نشر دار النور، النجف، ط٢، ١٤٣٤هـ.

١٥- **زينب الكبرى من المهد الى اللحد**: السيد محمد كاظم القزويني، تحقيق السيد مصطفى القزويني، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٦- **السيدة مريم في القرآن الكريم**: د. حُسْن عبود، نشر دار الساقي، بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

١٧- **صراط الحق**: محمد آصف الحسيني، نشر دار ذوي القربى، قم، ط١، ١٤٢٨هـ.

١٨- **العقائد الحقة**: السيد علي الحسيني الصدر، نشر دار العلوم، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٩- **العقيدة الإسلامية**: العلّامة المحقق جعفر السبحاني، نقله الى العربية جعفر الهادي، نشر مؤسسة الإمام الصادق، قم، ط٣، ١٤٢٨هـ.

٢٠- **الفصل في الملل والأهواء والنحل**: أبي محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦هـ)، وضع حواشيه أحمد شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.

٢١- **الفرقان في تفسير القرآن**: د. محمد الصادقي، نشر دار الأميرة، بيروت، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٢٢- **فضائل الخمسة من الصحاح الستة**: السيد مرتضى الحسيني الفيروز آبادي، تحقيق المجمع العالمي لأهل البيت، ط٢، ١٤٢٨هـ.

٢٣- **القديس بولس الرسول**: الاب متي المسكين، نشر مطبعة دير القديس أنبا مقار، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م

٢٤- **كتاب العين**: ابي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ – ١٧٥هـ)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢٥- **كلمة فاطمة الزهراء**: السيد حسن الشيرازي، نشر دار العلوم، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٦- **اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء**: المولى محمد ابن أحمد القراجه داغي التبريزي الأنصاري ت١٣١٠هـ

تحقيق السيد هاشم الميلاني، قم، ط١، ١٤٢٤هـ

٢٧- **المرأة هويتها الجنسية وأدوارها الإجتماعية**: محمد رضا زيبائي، ترجمة رعد الحجاج، نشر مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠١٣م.

٢٨- **مجمع البحرين**: فخر الدين الطريحي (ت١٠٨٥هـ)، تحقيق أحمد الحسيني، نشر مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٢٩- **مقتل الحسين**: العلّامة السيد عبد الرزاق المقرم، نشر مؤسسة الخرسان، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٧م.

٣٠- **المقدس والعادي**: مرسيا إلياد، ترجمة عادل العوا، نشر دار التنوير، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م.

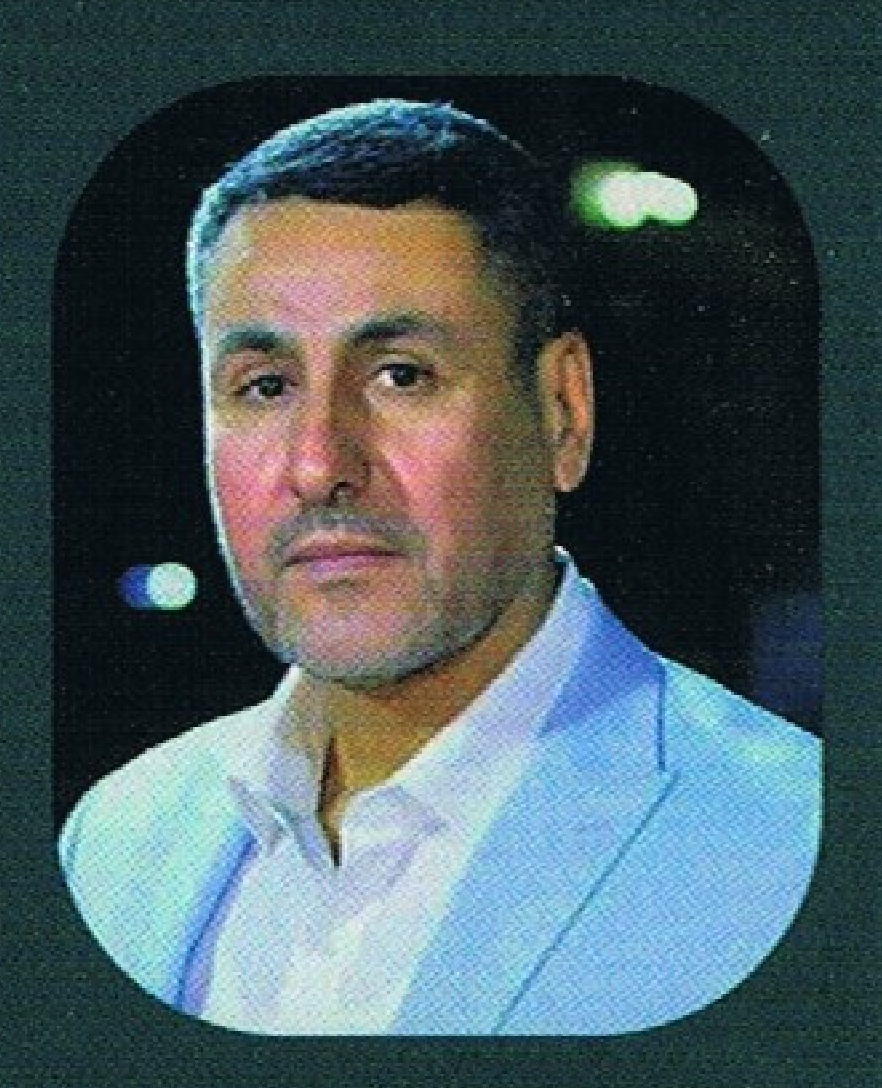
٣١- **مقامات فاطمة الزهراء في الكتاب والسنّة**: محاضرات الشيخ محمد السند، بقلم السيد محمد علي الحلو، نشر دار الهادي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٣٢- **الميزان في تفسير القرآن**: العلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي، نشر مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٣٣- **النكت الإعتقادية**: الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم ابي عبد الله العكبري البغدادي (٣٣٦- ٤١٣هـ)، تحقيق رضا المختاري، نشر المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، قم، ط١، ١٤١٣هـ.

٣٤- **ولاية الإنسان في القرآن**: آية الله جوادي آملي، نشر دار الصفوة، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م.

# الفهرس



# المرأة والنبوة

## التوراة - الإنجيل - القرآن

إن إقصاء مريم عليها السلام من النبوة هو ليس إقصاء للنساء من السلطة الدينية، كما يذهب البعض إلى ذلك، فإننا لا نتكلم عن أية سلطة دينية هنا، والدليل إنّ مريم نفسها لم تمارس أية سلطة دينية، ولم يطلب منها أن تمارس ذلك في حياتها. فكيف نريد أن نستدل بنبوة السيدة مريم على إثبات السلطة الدينية للنساء، فإن للنساء شأن آخر قد يوازي بأهميته تلك السلطة، إن لم يكن في بعض الأحيان هو المولد والموْجد لصاحب هذه السلطة، بأسباب وظروف خاصة. ولذلك علينا أن لا نتّهم من يذهب الى القول بعدم نبوة مريم إلى أنّه اعتمد على حكم نابع من أعراف الإسلام الكلاسيكي البعيد عن قابلية الإسلام المعاصر الذي يتماشى مع كل متغير وبإستمرار لا يعرف التوقف .

علي الزيدي

